ـسن موسى

طائر بلون الفضة
وقصص أخرى..



للفتيان

طائر بلون الفضة

... وقصص أخرى ...

حسن موسى

الإهداء

إلى وطني في محنته
إلى وطني في توهجه
إلى وطني دائما.

حسن موسى

(انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)

(صدق الله العظيم)

سورة الكهف

الآيــة (١٣)

ذات يوم، ومن غير سابق انذار، استيقظت المدينة التـــي لا تشبه المدن على الموت وقد اكتسح اهلـــها الطيبيـــن الآمنيـــن المسالمين. لا احد يعلم من اين جاء ولا كيف حط فــوق رؤوس الناس وارواحهم وانتشر في المدينة حتى اخر الزوايا.

... هكذا.. استيقظ الناس ليجدوا الوباء وقد تسيد مدينتـــــهم وتوزع في شوارعها، شارعا شارعا وتوغل ليحتل الســـــاحات والطرقات والبيوت.

حين انتبه الناس حـــــاولوا ان يصنعـــوا شـــيئا لأنفســـــهم ولأطفالهم وعوائلهم، لكنهم وجدوا ذلك جد عسير عليهم. فقـــد كان الوباء يتسرب في كل لحظة بين ازقة المدينة ويتسلل الـــى البيوت بيتا بعد آخر.

كان وباءاً رهيبا لم يسبق لأحد ان رأى او سمع بمثلـــــه ولا عرف اطباء الارض شيئا عن ادويته وعلاجـــه. فـــأوهن ذلـــك عزيمتهم وباتوا مغلوبين على امرهم. ولـــم يبـــق امامـــهم الا الانتظار.

كان انتظارا قلقا، بائسا. انتظار المغلوب على امره. وصـــار التضرع لرب السماء وسيلة الناس الوحيـــدة للتخلـــص مـــن الكارثة. لعل القدرة السماوية تذهب بهذا الوباء عـــن المدينـــة المنكوبة.

كانت مدينة يلاعب منائرها الطير وترقص علـــى جبهتـــها الشمس. الارض بساط من سندس اخضر. السنابل ضفائر مـــن ذهب. مدينة لا تعرف الفقر. وما استوطن الجوع يوما بيوتـــها،

ولا عرفت غابات نخيلها الخـــراب. ولا ارضــها القحــط. ولا انهارها الجفاف. كانت هادئة مطمئنة تستيقظ كل صباح علـــى شاطئ بحرها الازرق. وترتوي من مياه انهارها العذبــة التـــي تشبه ايدي خيرة تطرق ابواب بيوتها الآمنة في كل وقت. كانت مدينة تشبه الشمس جلالا وعظمة وكبرياءاً.

غير ان الوباء الدميم قد حول تلك المدينة الى دمار واطــلال بالية وخرائب لينعب في مداخلها البوم. فضـــاع الامـــان ودب الخوف والرعب بين الناس وانتشرت السرقة والسلب والنـــهب حتى اصبح كل ذلك جزء من المظهر اليومي العام في المدينـــة الخربة الجديدة. عمت الفوضى. وتردت الأخلاق. ضاعت هيبــة تلك المدينة العظيمة. وانزوت بعيــداً مــع آلامــها وعذاباتــها الخطيرة. وابتعدت عنها.. المدن خوفا مـــن وبائــها القــاتل، فغرقت في الجهل والجوع وحاصرها البؤس مــن كــل ناحيــة وسبقتها المدن التي كانت متخلفـــة عنــها بمســافات بعيــدة وطويلة.

غير ان الخوف كلما اتسع نطاقة وكبرت وفعته فقد حرارتــه وصار الناس يعايشونه كمــرض مزمــن وأخــذوا يعالجونــه بالعقاقير حينا وبالصبر حينا آخر. وكلما امتد زمـــن الخـــوف ضعفت هيبته وانكسرت شوكته وخرج الناس عليه وتحول الـــى طرائف وحكايات على ألسنة العامة.

في ذلك الحيــن. كــان فتيــة المدينـــة يرقبــون الاحــداث ويعيشونها في آن واحد. كانوا في بادئ الأمر حيرى. لايعرفون

من أين يبدأون ولا أين يذهبون. كانوا فتية لايملكون الا العـزم على تخليص مدينتهم من هذا الوباء اللعين، والاصـرار علـى الوصول الى هدفهم الساسي.

ابتدأوا فرادى. وعلى بعد. ثم صاروا يتقربون لبعضهم قبـل أن يتم اتفاقهم على المضي في ايجاد طريق الخلاص. صحيـح ان التجربة التي تُعَلمِّ الحكمة، والمران الـذي يصقـل القـوة ويمنح المطاولة، ينقصهم، مثلما ينقصهم الدليل الـهادي الـى طريق الخلاص.

غير أن حيرتهم لم تأخذ وقتاً طويلاً. اذ جاءهم الصوت:

ـ ابحثوا عن الخلاص.

تلفتوا حولهم. بحثوا عن مصدر الصوت.. لم تعثر أبصارهم على أحد يوجه أليهم النداء الذي كان اشبه بالنبوءة.

ـ ابحثوا عن الخلاص

تكرر الصوت مرة اخرى وكأنه آت عبر الغيـوم.. وحملتـه طبقات النسيم ليحط في آذانهم المتألفة.

التفتوا الى بعضهم. بحثت عيونهم في كل الاتجاهـات مـن دون جدوى.. ثم جاءهم ثالثة:

ـ الخلاص عند جبل قاف.. الخـلاص عنـد
جبل قاف.. عند جبل قاف.. جبل قاف..
قاف.. قاف.. قاف.. فـ . فـ. فـ.

وتلاشى الصوت، كأن طبقات النسيم التي حملته اليـهم.. حملته بعيداً عنهم ايضاً. كأن تلاشى الصوت تدريجيـاً، أشـبه

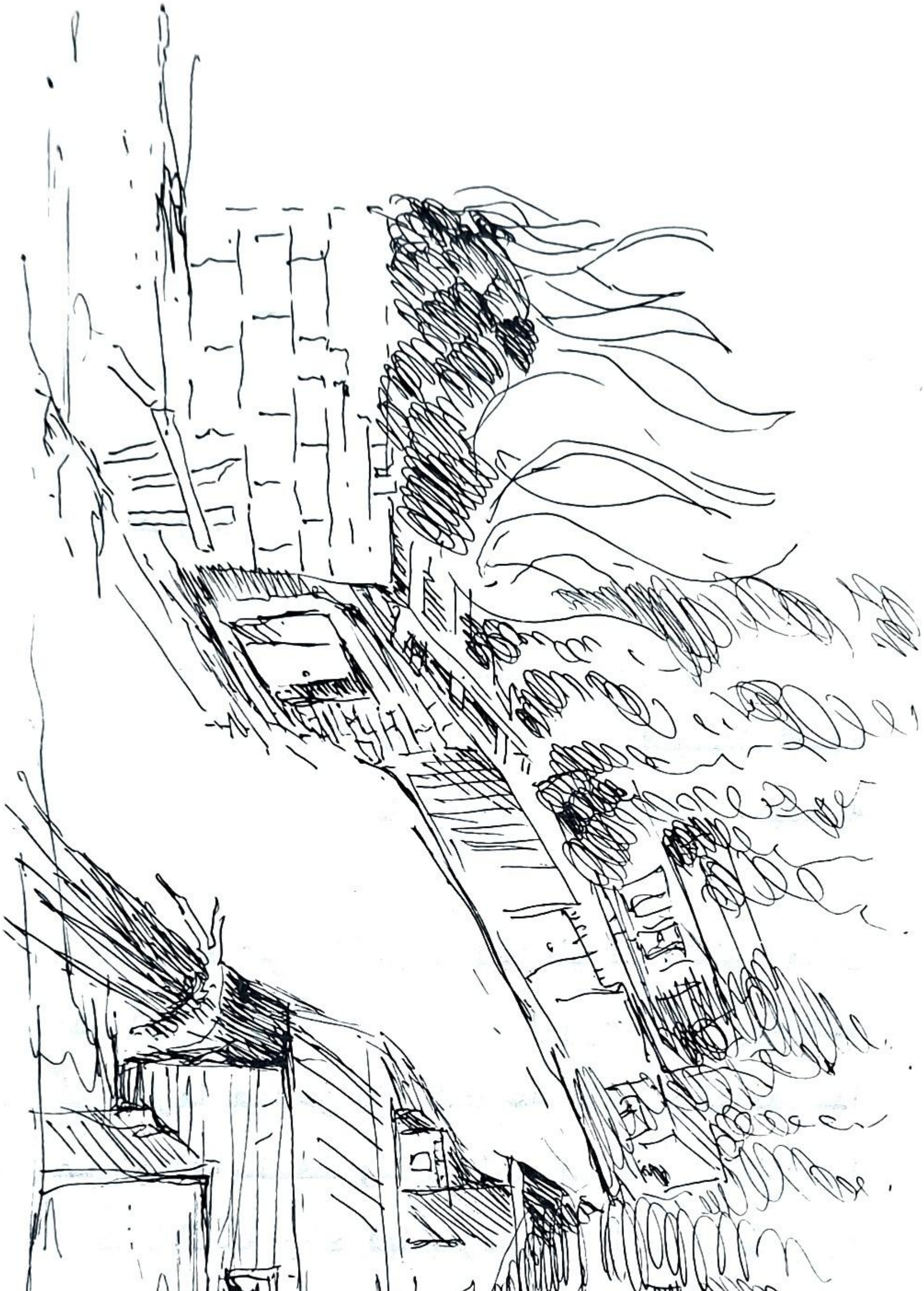
بالصدى المنسحب نحو البعيد.

والآن، أين هو جبل قاف؟

كيف الوصول اليه؟

إن هذا الصوت يجزم ان الخلاص في الوصول الى جبل قاف.. إذن الخلاص الذي يحلمون به. خلاص الناس والمدينة.. خلاص الجميع في ذلك الجبل البعيد، فكيف الوصول اليه؟

وقف الفُتْيَةُ عند مدخل المدينة. كانت الطرق الداخلة اليها والخارجة منها كثيرة ومتشابكة. طرق واسعة. طرق ضيقة. طرق سهلة. طرق وعرة. طرق تدخل في غابات النخيل. طرق تتوغل في الصحارى. طرق تنتهي سريعاً. طرق تمتد طويلاً.. طرق تتشابك. طرق تتباعد وتفترق. طرق تبقى. طرق تتلاشى وتضيع.. والفتية بلا دليل يدلهم أو يشير عليهم.. او يعلم الطريق الصحيح بعلامة. ومعرفة الطريق وسط فوضى التشابه والتشابك والتباعد عملية مضنية. صعبة وعسيرة، ومع كل هذا فالطريق التي صارت حلم الفتية العزيز كانت تتراءى لهم وكأنها تتكشف بصورة واضحة تماماً كواقع حي تسير عليه القوافل ثم تختفي كما ظهرت وكأنها سقطت في هوة عميقة مظلمة... عاد الفتية إلى داخل المدينة.. الى المكان الذي اعتادوا الالتقاء فيه. المدينة تغرق في ضياعها، وهي ماضية في الخراب والى الخراب. الفتية متشبثون بقرارهم لاعادة الحياة إلى مدينتهم وناسها واعادة من رحل عنها وعلى



الرغم من أن أكثر ماكان يهمهم هـو العثـور علـى طريـق الخلاص. الا انهم ادركوا، لكي يكتشفوا الطريق عليـهم أولاً أن يسلموا مقدمة موكبهم إلى دليلهم الهادي، وانـهم لايمكـن أن يركبوا طريق الخلاص إلا إذا وضعوا أرواحهم على أكفهم كمـا يقال. وان تكون ثقة الواحد منهم بجماعته اكـثر مـن ثقتـه بنفسه.

ومرة أخرى حملت طبقات النسيم اليهم؟ الصوت الغـامض من جديد.

- اعلموا ان جبل قاف يقف ثابتاً في أقـاصي الارض. انه ميزان الارض وقطبـها. عنـده تلتقي البحار جميعاً لتأخذ ماءها من نبعـه العظيم.

لتكن ارواحكم على هيئة طير. وليكن طيرانكم متماسكاً مثـل أرواحكم. الرحلة طويلة وهدفكم بعيد. كل روح مـن ارواحكـم تتيه في أفكارها بعيداً عن افكار الجماعة، وتحلم حلمها بعيـداً عن حلم الجماعة ستسقط. وتبتلعها لجج البحـر. أو تأخذهـا أودية الظلام السبعة أو تحرقها جمرات النار السبع أو تصيبـها سهام الغدر. أو تضيع في تشابك السماوات البـاردة. اركبـوا الطريق الذي تهديكم إليه ارواحكم وقلوبكم والذي سيحملكم فيه طيرانكم وتابعوه. سيعلمكم طول المسير وبعد السـفر، تحمـل المشاق، واحذروا المطبات السبع السباعية التي ستواجهكم في مسيرة طيرانكم الطويلة. إن اجتزتم تلك المطبـات سـتواجهكم



الشمس التي تجلس في حجر أبيها الجبل الجليل وبحار الارض جميعاً وهي تأخذ ماءها من النبع الكبير.. هناك ستعرفون كيف تجتازون الشمس والبحار والجبل والعبور إلى بحيرة الأمل والوقوف أمام مرآة السماء لتجدوا الخلاص بأنتظاركم.

وابتدأت رحلة البحث عن الخلاص. غير انهم وقبل ان يخطوا خطوتهم الاولى. اختاروا من بينهم فتىً عزوماً. ثبتوه راساً لمسيرتهم. ثم إمتد إلى جانبي الرأس خطين من الفتية على شكل جناحين عملاقين. وامتد بين الجناحين من منطقة الوسط وحتى مابعد نهاية الجناحين خط واسع من الفتية. كان أشبه بذيل طائر كبير. وكانت اذرع الفتية القوية اشبه بسهام الدعلج..

فجأة تحولت ارواح هذا التشكيل من فتية المدينة الى طائر عملاق لايشبه أي طائر، وقد اكتسب لوناً فضياً من لحظة تكونه. طائر بلون الفضة البيضاء النقية، ضرب الارض بجناحيه الهائلين وطار.

حلق الطائر بلون الفضة في سماء المدينة برهة. ثم اندفع في طريق الخلاص. كانت الارض تحته مستعرة.. مغطاة بقوافل البشر الباحثة عن خلاصها أيضاً، والضائعة وسط كثبان الرمل والاتربة والتعب. أو الموغلة في الادغال المتشابكة. قوافل لا راعيَ لها ولا دليل. تضيع من حيث تبتدئ. تصطدم مع بعضها أو تتقاطع.



أضحت أرواح الفتية ـ الطائر... تطير فوق البحر أو تسف محاذية الارض. لقد أصبحت طيراً هائلاً، تعانق جناحاه أطراف الاشجار، ويتنكب الطرق ويقترب من قوافل الناس فيثير الفزع والدهشة في الوقت ذاته. أو يبتعد بأتجاه الأفق. طير بلون الفضة البيضاء النقية يبحث عن الخلاص. والخلاص يقف منتظراً من يصل إليه ويطلبه. ولامفر من الوصول اليه. فعنده فقط تجد الارواح التائهة، والارواح المحطمة خلاصها وملاذها. عنده تستعيد كل نفس راحتها وطمأنينتها وأمانها بعد الخوف.. وتسترد الانفاس اللاهثة هدوءها.. والبطون الجائعة شبعها. ان هذا الخلاص العجيب لايأتي إلا لمن يأتي اليه. وليس كل من رغب فيه حمّل نفسه كلّ طاقتها أو بعض طاقتها وقرر الرحيل لطلب الرجاء. كانت اغلب النفوس حالمة به راغبة اليه. ولكن بصمت أو بهمس ذليل. وهي في كل حالاتها نفوس ضعيفة، متشبثة بالاماكن التي هي فيها، لا تبرحها ولا تغادرها وكانها مثبتة بمسامير من حديد صلب لا يمكن كسرها، ولا يمكن اقتلاعها.

كان الفتية يذودون عن انفسهم بجناحي طائرهم الموحد، وعيونهم التي صارت عينين لمخلوق واحد. عينين جميلتين بسعة الأفق تحملقان في المسافات البعيدة والقريبة، تستكشفان الطرق والأماكن. تستكشفان الماء الأزرق الممتد على اتساع لاتستطيع أن تحده عين مخلوق، كان البحر على اتساعه ينفتح أمام عيني الفتية ـ الطائر، وكأنه يمنحهم فرصة اكتشاف

مجاهيله. كان بحراً أزرق مخيفاً. انه إلى اسوداد اللون أقــرب. وعلى امتداد بصر الطائر، كان يرُى أن دخاناً اسود على البعــد يتصاعد اشبه بغيوم تصعد من جبل. كل هذا مخيــف ومرعــب غير ان الفتية الذين تماسكت قلوبهم يعرفون أن ليس لهم لكــي يصلوا إلى هدفهم إلا الايمان بطائرهم والتوحـــد فيــه. ولقــد صاروا موقنين أن ليس لهم إلا حبهم لبعضهم. فهم يعرفــون أن الوصول إلى خلاصهم ليس سهلاً. فـــهذه الطــرق المتداخلــة والمتشابكة والمتشعبة، وهاد تمتد وتدخل فـــي نـــهايات غــير مرئية وجبال ترتفع حتى تتداخل مع بدايات السماء الســفلى أو تدخل فيها.. بحار تتلاطم أمواجها وترتفع حتى لكأنها ترغـــب في تسلق الأفق أو أن فيها رغبة لمعانقة النجوم، الصحـــارى التي تبحث عن نفسها في الرمال الناعمة المتيبسة تحت شمس العرب الحارقة. والتي أخذت تسميات ومسميات وتنقســم إلـــى أرباع وأخماس. صحراء كبرى. صحراء تنقب عن نفسها فـــي سيناء صحراء شرقية. صحراء غربية. صحراء بربــع الأرض الخالي. صحراء في صحراء. جدب في جدب. ليس غير الرمــل المتكومة فوق بعضها وغير المستقرة الى أبد الدهر ولا تقــوى على حمل قدم. رمال متحركة إلى الاسفل حيناً. وكثبان تتحــرك إلى الأعلى حيناً آخر.

ومع ان كل شئ يبدو انه يتحرك الى لا مستقر فأن الطـــائر بلون الفضة كان مستقراً في طيرانه، أكيداً في رؤياه. كل شـــئ يتحرك تحته وهو يندفع إلى خلاصه. البحر العجيب مسرف فـــي

امتداده. يموج بحيتانه واسماكه العملاقة. الآكلة والماكولة. يموج بكل غرائبة وكائناته الأغرب وبكل ثمين من اللآلئ والجواهر والدرر. بالمرجان الأحمر وغير الأحمر. أي رعب خلف كل هدف جميل!! أو قبل كل هدف جميل!! هل يمكن لأي من هذه الارواح المتآلفة الطائرة أن تفكر بالمنتهي من الأحلام؟ بالمنتهي من الرغبات؟ الافكار تأتي سريعاً في بعض اذهان الفتية ثم تختفي وكأن رقيباً شديد البأس يراقبها. ان هذه الافكار التي يسمونها بنت لحظتها ينبغي أن لا تشغل الكثير من تركيز الارواح – الطير. ان كل روح من الارواح الطائرة انما هي ريشة من ريشات الطائر. وهذا الطائر يجب أن يطير متماسكاً بريشه كله واجزائه كلها وبتركيزه كاملاً وعميقاً. ان الهدف العظيم يحتاج إلى تركيز عظيم لأن كل فكرة مهما كانت صغيرة انما تشغل جزءاً من فكر الطائر وقد يسحب هذا الجزء جزءاً آخر. والجزء الآخر يسحب جزءاً ثالثاً، وهذا خطر كبير.. الارواح التي تطير نحو مهمتها وهدفها احوج إلى التماسك. وكل جزء ينشغل في فكرة جانبية سيضطر الأجزاء الأخرى إلى مليء فراغ انشغاله ان هذا يقلل من قوتهم التي يجب أن تكبر كلما مر الوقت وكبرت التجربة في قطع الطريق.

الطائر – الفتية يطير في سماء خلت من الغبار تحت شمس ربيع غريب، لا حر ولا برد. كل شئ يبدو واضحاً لعيني الطائر العجيب ذي الارواح المتحدة المتعددة والمتوحدة أيضاً.

طائر فضي هائل يطير فوق بحر لا نهائي، قد أخذ الكثير

وأعطى الكثير وفيه يغرق كل يوم غريق جديد. النازل فيه مفقود والمرتفع فوقه مفقود لولا رحمة الله العظيم. اتساعه عجيب وزرقته أعجب ورهبته تفقد صواب العقلاء من البشر.

ترى لو أغرقنا فيه ما اغرقنا هل سيتاثر؟ هل ستفيض مياهه أو تنخفض او تحتج أو تتذمر؟.. لاشيء من هذا سيحدث. انه مسرف في الامتداد. مسرف في الاتساع. مسرف في العمق. لا يعير لمن حوله او فيه التفاتاً. غنيٌ بنفسه. غني بما فيه.

فوق هذا الكون الازرق. تطير الارواح ـ الطير. ماذا لو تغيرت الريح وتعطل جناحها؟ هل سيرق قلب البحر، وتأخذه الرأفة؟ ولكن هل يتسع الوقت للاجابة على كل سؤال؟ أليس الأجدر أن نطبق الشفاه التي صارت شفتين فقط. وان تدخر كل طاقة للطائر الذي يخترق سماء هذا الخضم المتلاطم.

استولت ارواح الفتية ـ الطائر على أجسامهم واصبحت المتحكمة والمتمكنة وما عادت للأجسام تلك السلطة المطلقة المهيمنة والمتسلطة على الارواح.. تلك الأجساد التي كانت السبب الاساس في هزائم رجال عظام، خضعت لارواح الفتية.. لارواح الطائر بلون الفضة النقية. الارواح هي الاعلى. وليس للفتية من تلك الارواح الا الجانب النقي الذي عزم ان يسير صوب المخلص والخلاص. كانت النفوس طيعة لارادتهم.. وارادتهم تتجه بأتجاه واحد لا بديل له. الخلاص.. والخلاص كلمة وجهة في آن واحد. وهم الآن.. في هذه اللحظة.. تحملهم

ريحهم صوب هذه الكلمة.. وهذه الجهة. تحملهم الى جبل قلف ورغم العزم الذي يمسك بارواح الفتية فأن الطائر يبدو لعيني الناظر من بعيد وكأنه يطير مزهواً بطيرانه مختالاً مترفاً وفيه من اللطف مايشد العيون اليه.

غير أن هذا الذي يراه الناظر، هو غير الذي يعتمل في النفوس الفتية. فالاذرع المتماسكة والارواح المتعانقة والعقول الموحدة والافكار المتوحدة التي لاتستطيع عين الناظر ان تراها أو تكتشفها، هي التي تطير الآن على هيئة طير وليس لها إلا أن تلامس خيوط الشمس وتدخل في هالة القمر.

فجأة وجدت الارواح ـ الطائر نفسها وسط هالة من سماوات منفتحة. سماوات كطبقات البلور. اختفى البحر. تكدست النجوم. تغيرت الأقمار. غابت رؤيا الطائر وكاد يخرج عن مساره. لكن الارواح المتمسكة بخلاصها. اهتدت الى بعضها بالحب. تماسكت ريشات الطائر وتداخلت. اندفع الطائر الى الأمام غير ملتفت الى أي جانب أو الى شيء. اندفع بعنفوان كالسهم وصار يعبر السماوات المتراكمة فوق بعضها والعابرة ألى جهات مختلفة طبقة بعد طبقة وسماءً بعد سماء غيرعابئ بتغير مسراها واختلاف مواقع نجومها. فقد حافظ على مسراه الذي اتخذه في بدء مشواره واتبع هدى قلبه ونداء خلاصه. وكان في كل طبقة يدخلها يتغير عليه الطقس والريح وتتكاثف الغيوم او تتبدد، تظلم الرؤيا أو تتوضح.

وفي لحظة لايدري كم طال الوقت قبلها سمع صوت خلفه

وكانه يؤكد عظمة طير الفضة الفتي:

- (لقد عبرت المطب الاول. عبرت السماوات السبع بسلام ستفوز بجواهر الخلود الثمينة. ستلبس الدمقس والحرير، ستكون بمصاف الملائكة بعد عبورك المحطات والمطبات الأخرى. ستفوز بكل ثراء).

ما ان سمعت ارواح الفتية هذا النداء حتى تعزز العزم فيها لقطع الطريق الى الخلاص. غير ان بعض ارواح الفتية صارت تفكر بكل الوعود والآمال التي نطق بها الصوت القادم من جهة مجهولة.. فكرت بالدمقس. بالحرير. بالمال. بالجواهر.. فكرت بحور العين. والآمال العريضة والجاه.. فكرت بان هذه الرحلة ليست لمجرد الوصول الى الخلاص. خلاص الناس والمدينة. انما هي رحلة من اجل الذات والفوز بالمكانة والغنى ايضا. وان الخلاص ليس الا المبرر لكل الاحلام التي كانت مكبوته داخل النفوس. ولابد من اكمال الطريق من أجل الوصول الى كل ما وعد به الصوت.

وما ان اتمت هذه النفوس أفكارها. وما طمأنت ذواتها عليه حتى اختل توازنها وفقدت التوافق بين نظر الطائر الممتد نحو الافق وابصارها المرتدة، والتي ما عادت تميز المكان وموقعها من جسد الطائر العملاق فتمايلت واهتزت وشعرت بأنها تقتلع من جذورها النابتة في جسم الطائر ثم هوت.. وسقطت الى هوة لا قرار لها. والغريب ان الريشات الساقطة، ما ان تترك

مكانها من جسم الطائر بلون الفضة النقية وتهوى الى حيث لا قرار، حتى تتحول الى أجساد بشرية بائسة ليس فيها من الجمال مايشد العين اليه. اجساد كالحة ما أن تهوى حتى تسمع صرخاتها جنبات الأفق. صراخها اشبه بالعويل، وسقوطها لا يثير حتى الرثاء. كان سقوطاً مخجلاً. من العلو الرفيع الى الحضيض. وكان البحر قد فتح أفواهاً شرهة وكأنها تنتظر سقوط مثل هذا السقوط حتى من البناءات العتيدة. سقوط تسببه الرغبات الصغيرة الزائلة.

تنبهت الريشات الأخرى. التي ظلت تكسو جسم الطير الى ذلك وادركت ان مافكرت فيه تلك الريشات الساقطة ليس فيه إلا الانانية وحب الذات، وهذا مخجل، اذ لايجب ان يرافق هذه الرحلة التي تطلب المجد وتبحث عن خلاص المدينة والناس... مدينتهم وناسهم. أهلهم وأطفالهم، اخوتهم وآبائهم وامهاتهم والأخوات.

لقد وضع الفتية أرواحهم رهناً لحلم الجميع. لبسوا قلوبهم فوق دروعهم ـ كما يقال ـ وضعوا الارواح على الأكف وأتوا يبحثون عن الخلاص. فلماذا اذن تستمر تلك الرغبات الصغيرة المنتهية تفسد النفوس.؟



- (ان الهدف السامي الذي تاقت اليه نفوسنا يجب ان لاتختلط به الرغبات الخاصة.. اننا في القتال. في المواجهة. نحن عازمون على الفوز. عازمون على الانتصار من اجل مدينتنا وشفائها من اجل أن نعيد لها حقها في الحياة. في العيش الكريم.

وما دمنا قد وضعنا أقدامنا على الطريق الذي يقود الى الخلاص، فلابد أن نستمر في ما بدأناه بل لابد أن نكمل ما بدأناه حتى لو تطلب ذلك منا أن نذهب راقصين نحو المواجهة).

هكذا فكر فتية الطائر بلون الفضة. ان جبل قاف الذي هو مركز العالم وقطبه. جبل الأحجار الكريمة الذي يرتفع اكثر من خمسمائة فرسخ فوق سطح البحر. الجبل الذي اضاع الناس علمهم فيه فنسوا هل هو جبل الزمرد ام جبل الزبرجد ام جبل الياقوت ام جبل كل هذا مجتمعاً؟

ما عادوا يتذكرون سوى ان الشمس تشرق منه وتغرب فيه. وان الماء الذي يسبح فيه يعكس لون الياقوت والمرجان الاحمر حين تشرق الشمس عليه ويختفي كل شي ما عدا ذلك.

- هذا الجبل الذي يحمل الخلاص قريب منا ونحن بعيدين. سنصل اليه حتما سنصل الى كل مكان فيه خلاصنا.. ومادمنا عرفنا اين خلاصنا فسنذهب اليه. سنصل الى نبع


هادي السيد
2001

العزة. نبع الفيض. ينبوع الوجود الـــذي لا سبيل اليه الا بالمطاولة واقتحام الصعــاب. ولا صبر عنـــه ولا ارتـــداد عـــن طريقـــه. ارواحنا تتلهف اليه وارواح آلاف الخلق من ناسنا الذين يفتك الوباء بهم. لابد من عبـور المستحيل)).

ازاداد طيران الطائر قوة وتوثبا والغريب ان الفراغات التـي تركتها الريشات الساقطة قد اخذت مكانها ريشات أخـــر وكـــأن الريش الثابت قد توالد او انه استطال فملأ المكان الفارغ. طائر الفضة البيضاء صار يكبر. ريشه يطول. ريش دعلجي يكســـو طائراً فضيا. الوقت يمر. الطيران يكبر. القوة تزداد قوة. وكلما ضعفت نفس حملتها النفوس الاخرى. الارواح تفكـــر فـــي آن واحد في الفكرة نفسها. في الخلاص وما بعد الخلاص. صـــاروا اكثر ثقة بانفسهم.. بطائرهم وفي الغد القادم ايضا.

الطريق طويل، طويـــل. البحـــر عميـــق، عميـــق. الارض تضاريس لا تستقر ولا مجال للاسرار لا مجال للنواح. لا أنيـــن ولا ضوضاء. الضجيج عالم خرب لابد مـــن تجـــاوزه ومـــهما اسرف الطريق في امتداده او تغييبه لعلاماتـــه، بحيـــث يبـــدو وكأنه طريق بلا علامات. طريق ضائع. لا هدف له ولا وصول. لن يغير ذلك من الامر شيئا. فهم الان موقنين بهدفهم. عـــارفين بما عزموا عليه، متاكدين من انفسهم ومـــن شـــجاعتهم فـــي الاستمرار على الطريق نفسه وقطعه حتى اخر شبر فيه. انـــهم

الان اكثر تاكدا من ان العلامة ستظهر. وان ما حلموا به سيرونه حتما والا فان الحياة بغيره ستصبح عدما. قلوبهم المنورة الصافية ترى ذلك جيدا. قلوبهم صارت مرايا وادلة.. هؤلاء الفتية ــ الطائر صاروا مفتونين بهدفهم. ولانهم كذلك، ماعاد بامكانهم الا ان يصروا على اتباع هوى قلوبهم اكثر فاكثر كلما توغلوا في طريقهم اكثر فاكثر.

لابد ان يكون كل ذلك، والا فما رحلة الخلاص هذه الا ضرب من العبث. لابد من جدوى لرحلتهم.. الاحلام الوردية، الالوان الجميلة. العطور الزكية. الازهار في الحدائق. الضحك الذي يورّد الوجنات. لابد ان ياتي كل ذلك. لابد ان يعود.

الفتية يعرفون ان ذلك لا ياتي مجانا. لا يعطى بالتسليم الطوعي وليس سهلا:

ــ (ان نكون كالاسود. كالصقور. كابطال الاساطير. العقبات سنجتازها مهما كانت. مهما كبرت. مهما تعددت. ليس لنا الا اجتيازها. ليس امامنا غير ذلك وكل طريق له نهاية. مهما كانت الريح عاتية لن ينكسر ظهر السماء. وان كانت طاقاتنا محدودة ونحن فرادى فانها الان ليست كذلك ونحن متحدين نطير كواحد. نعبر كواحد. طيراننا يغطي الافق. يبلغ السماء. قوتنا متجددة. عزمنا شديد، وليس بيننا طير يغرد على

غصن اخر. اننا طيور الشجرة نفسها على الغصن ذاته. ليس من طبعنا التقلب في النوايا. لن تاخذنا الغيرة. لن ياخذنا الغم. حين قررنا كان اختيارنا متوافقاً سريعا ومدركا. نعرف، ما نريد وما نرغب به. نفوسنا صافية. بصرنا ثاقب لم تكن لنا تأوهات كثيرة. لم نكن صيداً لتأوهاتنا. قلوبنا مفعمة بالحب. تواقة للخير. غير هيابة امام الصعاب. لم نتخاذل يوما. رغبتنا دائما كبيرة في المجابهة. في المواجهة لم ندبر يوما. نحن مقبلون دائما نركب الطرق الوعرة حين نجد ان لابد من ركوبها للوصول الى الاماني الحلوة. نحن من يضع النهاية. من يصنعها. حين ياتي الخلاص. نكون من صنعه. الحق معنا. الحق لنا. لناسنا. لنا الحق في الحلم. لقد مل الناس الانتظار وآن آوان الوصول).

فجأة انبثقت في الجو جمرة حمراء كبيرة واندفعت باتجاه الطائر. جمرة كأنها بركان ثائر انفجر من لا مكان واحرق صفحة السماء. كان اندفاع الجمرة باتجاه الطائر سريعا كشهاب متوهج.

تنبه الطائر في اللحظات الاخيرة ومال بخفة عن مسار الجمرة فهوت نحو البحر لتغوص فيه وتضيع بين لججه

المتلاطمة.

ولم تمض الا لحظات حتى انطلقت ست جمرات أخــــر مــن اماكن مختلفة لم يستطع الطـــائر ان يحــدد نقطــة انطلاقـــها باتجاهه. مال عنها وتحرك برشاقة ومر من بيـــن مســارتها. ولانها كانت تنطلق من الجهات الاربع وباتجاه هدف واحد فانها صارت تتصادم مع بعضها ويرتفع شررها الى عنان الســـماء. ثم تهوي بعد ذلك في البحر وتحرق صفحته الزرقـــاء الداكنــة قبل ان تغوص في أعماقه منطفئة خاوية ذاوية.

مر زمن الجمرات السبع سريعا، ووجد الطائر نفســـه فــي فسحة تحت سماء صافية من جديد. وفوق بحر كبـــير ومــرة أخرى جاءهم الصوت:

– ((حين تكملون عبور المطبـات الســبع.. ان عبرتم ستجدون مكافـــأتكم ايـــها الشـــجعان العظام)).

لم يلتفت الطائر ـ الفتية. ولم تاخذ اي من النفـــوس فـــي الطائر العظيم الافكار الصغيرة والرغبات الصغيرة واندفعوا فـي طريق الخلاص.

* * * * *

تلاطمت الامواج تحت الطائر الفريد. تغيرت سبل الماء. تشعبت المخارج والمسالك. ماعاد البحر بحرا واحدا. انه الان بحارٌ تاتي من جهات مختلفة وتدخل في بعضها بحار بحار. طبقات مائية لا حدود لها. لا ضفاف. لا مرأى لارض. اختلف كل شئ وضاعت المسالك. باي اتجاه سيطير؟ اين سيحط؟ كيف سيهتدي؟ سبعة بحار دخلت من زوايا غير مرئية كآنها جاءت من لا مكان. من جهات غير متقابلة، غطت كل شئ وارتفعت فوق بعضها. تكومت وتراكمت وانتهى كل شئ.

ادرك الطائر ان هذا الماء المتلاطم ليس سوى البحار السبعة وعليه اجتيازها، ليس له الا الاستعانة بالرب الكريم وان يشد بعضه ازر بعضٍ.

لم يغير الطائر من اتجاهه واندفع بعنفوان اكثر مما ابتدأ به مشواره. البحار التي فاجأته في لحظة ظهورها وتلاطمها واندفاعها، استوعب وضعها الان واعتبرها بحرا واحدا. بحرا عظيماً واحداً. صحيح ان ارتفاع امواجها يكاد يغرق الكون ويلامس هامات الجبال او هو ابعد من ذلك ولكنها لابد ان تحسب حساب البحر الواحد ما دامت لن تكون الا واحداً من المطبات السبعة السباعية التي انبأه بها الصوت العظيم، مرشد مسيرته الذي يرى كل شئ الان بكل تاكيد، وسيعبرها حتما.


2001

البحار تسد منافذ الرؤية عن اية ضفة او ارض. عن اي مرتفع او اتجاه، لكن ذلك لن يستمر الى الابد. الطائر يرتفع يكاد يدخل الغيوم.. يزداد اندفاع الطائر. ثم فجأة كما ظهرت البحار.. اختفت ليجد الطائر نفسه يطير قرب ضفاف خضر وسهول واسعة تركض فيها المهاري والايائل والغزلان وتغرد على اشجارها العنادل والعصافير وتعرش فيها الكروم واشجار التين والزيتون والبرتقال والزروع والحياة. البحر الذي صار صديقا الان يمتد محاذيا تلك السهول وضفافه تمازح الحياة فيها وتعايشها.

وجاءه الصوت المتابع لرحلته من بعيد:

- هنيئا لك ايها الطائر الجميل. انت تعبر نحو الخلاص بقوة، ولكن كن حذراً مما سياتي لتفوز بجائزتك العظيمة.

لم يغر الصوت القادم والمتابع، الطائر بلون الفضة.. بالالتفات. سمعه وكأنه لم يسمعه. تماما كما حدث حين جاءه بعد المطبات السابقة. استمر في مسيرته يخترق المسافات بهمة عالية. والهمة العالية تكشف عن كل ما هو مخفي. الطائر يطوي البحر.. يطوي الارض. يعبر المرتفعات وعلى بعد بعيد بدت لامعة ومحاطة بالدخان مرة اخرى، قمة جبل بعيد.. ولكن.. هكذا ومن غير انذار.. بلا مقدمات.. كاد الطائر يصطدم بمرتفع اجرد.. شاهق، سد عليه الطريق انبثق من عمق الماء. مال الطائر عنه ليجد نفسه محاصر بجبل اخر..

وكلما مالَ واجههُ جبل جديد.. هكذا.. مرة اخـــرى.. لا يعــرف كيف.. ولا من اين.. ارتفعت ســـبعة جبـــال جـــرد لتحـــاصره وتضيق عليه الحصار. والغريب ان هذه الجبال اخذت تزحـــف نحوه كل جبل من جهته الخاصة.

الجبال تضيق حصارها. الطائر حائر. كيف يخلص نفســـه؟ كيف يفلت من حصار لا منفذ له ولا مفر منه؟ المسافة تضيـــق وكل ثانية اطول من دهر على ذهنه ان يعمل بسرعة تتجـــاوز الحسابات المعتادة. وفي اللحظة التي بدت وكأن نهايته فيها قد حانت نظر الى الاعلى، فشاهد الفسحة المحصورة بين الجبـــال قرب قممها. صحيح انها تكاد تحاذي السماء او تدخـــل فيـــها، ولكنها الفسحة التي لابد من الوصول اليها قبل ارتطام الجبـــال ببعضها ومن ثم سحقه تماما. وفـــي لحظـــة حاســـمة ضـــرب جناحيه واندفع صاعدا بسرعة لم يعرفها من قبـــل وبلحظـــات قليلة وجد نفسه وقد تجاوز قمم الجبال السبعة التي ارتطمـــت ببعضها. كان ارتطاما هائلا وصل اندفاع الاحجار التي تنـــاثرت منه الى مسافات بعيدة وكبيرة ثم تلاشت الجبال في مياه البحر، الذي ابتلعها في الحال. استمر الطائر في طيرانه وكـــأن الـــذي حدث لم يحدث. صحيح انه نجا باعجوبة، وصحيح انـــه كـــان قاب قوسين او ادنى من السحق والطحن والموت، لكنه علـــى كل حال، يعرف انها المطبات. وكل مطب فيها ما وضع الا مـــن اجل ان يقضي عليه وينهي رحلة البحث عن الخلاص. رحلـــة انقاذ المدينة التي لا تشبه المدن والتي حولها الوباء الى اطلال

خربة وقبح وفقر. كان الطائر يعرف ان المطبات لابد منـــها.. اذ لولا المطبات. وقلة الزاد وبعد السفر لكان سهل على أي كـــان ان يجد الخلاص في كل مكان. والحق ان هـــذا الطـــائر الـــذي



ارتفع حتى كاد يلامس السماء اصابته البرودة القاسية في ذلك الارتفاع السماوي.. تبلل ريشه ـ دخل البرد في مساماته حتى العظام وصار يطير مرتجفا. ذلك هو الاختيار الصعب وهو يدرك ذلك. اختيار صعب لهدف صعب. والجبال السبعة صارت حطاما ابتلعها البحر.

- ((عبرنا المطب القاتل.. نحن الان ننزلق الى الجهة الاخرى من الجبال في اتجاه هدفنا. نسبح في طيراننا فوق بحرنا الصديق. رفيق رحلتنا العزيز وضفافه الامينة.. وجاءنا الصوت.))
- ايها الطائر.. انت تقترب من جائزتك.. ولكن تذكر ان المطبات ما انتهت، فكن حذراً لا تأخذك الغفلة وتعميك الفرحة بما تجاوزت من مطبات.

* * * * *

من جديد بانت لعيني الطائر تلك القمـــة البعيـدة اللامعـة محاطة بالدخان. قمة الجبل ترتفــع حتــى لا تسـتطيع عيـن المخلوق ان ترى نهايتها. ضائعة وسط السحب. ترى ايمكـن ان تكون تلك قمة الجبل الحلم؟ الجبل الذي صار الوصول اليـه حياة باكملها؟

استعر حماس الارواح وهي تبصر على البعد البعيـد تلـك القمة التي يلفها الغموض. نسيت كل ما مر بها مـن متـاعب واندفعت بطائرها الفضي اللون بقوة تقطع ما تبقى من مسـافة بينها وبين القمة المغرية. نسيت الاخطار المتربصة بها. تمامـا مثلما نسيت ما تجاوزته من اخطار سابقة. ما عادت تتذكر ومـا عادت تحتسب للذي ياتي. صار همها ان تقطع المتبقي من تلـك المسافة التي تفصل بينها وبين الجبل والنبع والمرآة. لذلك مـو السهم الاول من السهام التي انطلقت نحو الطائر قرب الـراس ودخل بين الريش واخذ معه عددا من ريشاته وهو غافل. مـن غير ان ينتبه. كانت كل ريشة تترك مكانها في جسـد الطـائر تتحول الى روح حية. بشر حي مصاب لا يلبث ان يتحول الـى طير اخضر ينز منه خيط احمر ويظل يسـبح فـوق البحـر.. وهكذا كثرت الطيور الخضر التي تنز منها خيوط حمر، تحولـت الارواح الى طيور هداية لكل الارواح القادمة التي تتبع مسـيرة الطائر بلون الفضة البيضاء النقية. هذه السهام التي اطلقتـهـا ايد غير مرئية كان هدفها ايقاف رحلة الطائر.. وستظل دائمـا تستهدف كل روح تبحث عن خلاصها. لم ينتبـه الطـائر مـن

غفلته الا بعد اختراق السهم الاول له. وكاد السهم الثاني ان يصيب الراس لولا انه اسرع فمال عنه الى جهة بعيدة.

اندفعت السهام القاتلة تمطر الطائر الجريح من كل جانب. من الامام. من الخلف. من الجانبين. ضاقت عليه السبل. لا سبيل للالتفات. لا سبيل الا ان يمر من منطقة الخطر.. منطقة السهام التي تاتي من ايد لايمكن رؤيتها. سهام تقذفها اقواس خفية. هبط الطائر حتى حاذى الماء.. لجأ الى الضفاف تجاوزها الى البر.. فجاة وجد نفسه في واد اسود لا سبيل للرؤية فيه لا نور ولا بصيص للاستدلال على الطريق. تلمس طريقه وسط دهليز مظلم. اصطدم بالاحجار.. كاد يسقط او ينقلب. احس بالخطر. بخطر حقيقي.. ارتعبت النفوس في الطائر الجريح. وفي لحظة وجد انفراجا قصيرا. راى المكان وامتد بصره الى مسافة طويلة استدل بها على المكان وما يحيطه، لكنه دخل دهليزا آخر مرة اخرى. دهليز اشد ظلمة من الاول. دهليز افضى به الى واد مظلم جديد. وما ان تجاوزه وكاد يرى ما يشبه البصيص لنور بعيد تلقفه اللون الاسود من جديد. وهكذا أخذته الاودية السود السبعة. طائر جريح يطير في اودية سود. طائر يطير والمنايا تلتف حوله. اصطدم اكثر من مرة. وكاد يسقط اكثر من مرة. كان طيرانهُ في مكان اعمى، طيرانا في خضم لا سبيل لرؤيته.. لا دليل.. لا همس. لاصوت. ليس الا نداء القلب. ليس الا اتباع هدى النفوس والاصرار على البقاء من اجل خلاص الذين ينتظرون هناك

على ارضهم المنكوبة. ثم على بعد.. تماماً كما يأتي الفجر عند انبلاجه بعد ليلة حالكة الظلام بـــانت اول لمســات الضــوء.. فتنفس الصعداء. كانت به رغبة ان يرى في الاقل اين اصيــب واي ريشاته العزيزة كانت الضحايا.؟ غير ان هذا لم يدم.. فمـا كاد يتلمس جرحه ويتلمس اماكن ريشاته وعدّها، حتى تلقفــه عالم ضبابي عجيب.. اشبه بظلام ابيض. بل هو ظلام ابيــض مادام لا يمنح من الرؤية اكثر مما تمنحه الاودية السود. ومـرة اخرى تخبط بين اودية الضباب التي اخذته بعيداً. بعيداً.. لكنــها لم تستطيع ان تلوي رقبته وتعيده الـــى الخلــف فكــل الــذي استطاعته هذه الاودية اللعينة عرقلة مسيرته وتضييع خطواتــه في دروب بعيدة عن مسراها الحقيقــي.. صحيــح ان جروحــاً جديدة اضيفت لجروحه السابقة. لكنها الجروح التي ســتضحي ندوباً لا يمكن نسيانها.

* * * * *

حين خرج الطائر من مطب الضباب الابيض وجد نفسه بعيداً عن البحر صديق مسيرته. غير ان هذا لم يمنعه عن رؤية القمة اللامعة. بل انها الآن اكثر وضوحا. لذلك لم يكن صعباً عليه العودة لطريقه.. وجاءه الصوت:

— ايها الطائر العظيم، انك تعبر المستحيل. وشهداؤك ادلة لكل طيور الخلاص القادمة. لكل المواكب. كن يقضاً في معركتك الاخيرة. المعركة الفصل عند جبل قاف قرب النبع العظيم.

* * * * *

اخذت تيارات البحر تزداد حدة كلما اقترب الطائر من الجبل. تحولت امواج البحر الهادئة الى جبال من الامواج. طغيان مائي يصعد نحو السماء. يختل توازن الطائر ويكاد يهوي نحو الموج القاتل، غير انه تماسك ثم استوى على اجنحة الريح وصعد الى كبد السماء، ومن هناك صار يرقب الموج واللجج والاودية التي تغرق في الظلام. ومن ذلك المكان المرتفع جداً اخذ يرقب التقاء البحار.. اقترب من الجبل.. اقترب اكثر .. اكثر.. حاذى الجبل في عليائه وابتدأ يشهد موقع النبع العظيم.

البحار تلتقي وتفترق. تغدو وتروح. تروح وتغدو، مثل كائنات عملاقة. بحر الهند يعاكس بحر عمان. بحر قلزم لا

يلتفت الى بحـــر الـــبربر، الاوقيـــانوس يتعـــالى علـــى بحـــر القسطنطينية. بحر الظلمات يأتي مجللاً بـــــالعواصف ويخـــرج مجللاً بالعواصف ايضاً، كأنه لا يعرف غير العواصف، ولا يحيا من غيرها.

وتأتي البحار الأخر بين ضاحك ومبتسم، او غاضب او غـير مبال بأحد. اما البحر الاسود. فهو اسود دائماً وكأنه فقد اعزته جميعا في يوم واحد، ولعله هو وحده من أعطى اللون الداكـــن لتلك الاودية السود الغارقة في ليلها الابدي.

لم يلتفت الطائر الى الوراء. لكنه صنع لنفسه دورة كبـــيرة حول الجبل والنبع، ابتعد فيها عن موقع الجبل.. الشمس تحـــط هناك متدفئة بأشعتها. راضية بساعات راحتها، وقـــد تركـــت اشعة ضوئها الساطعة تسيل وتتهدل أمامـــها فتنعكـــس علـــى صفحة الماء البلوري الأخضر المزرق، وتركت القمـــر وحـــده يصعد الى أعلى نقطة في السماء ليـــأخذ طريقـــه الـــى دنيـــا الناس.. ولأن الضوء كان شديداً ساطعاً بفعل وجـــود الشـــمس المستريحة في حضن أبيها الجبل الزمردي الجليل، فقد شـــاهد الطائر مواكب الارواح التي ســـبقتهم الـــى هنـــا بحثـــا عـــن الخلاص. مواكب جاءت فرادى او جماعات سقطت غرقى فـــي البحر او فنت أرواحها بحثا عن الخلاص.

فتية تاهوا في العراء، أو في الاوديـــة الســـود، أو مـــاتوا عطشاً فوق الماء المالح. تلك الارواح الوثابـــة التـــي قضـــت نحبها عند جبل قاف. تماماً بالقرب من مخدة الشمس الحارقـــة.

طيور تشبه الطائر بلون الفضـــة البيضـــاء. أو تشـــبه طـــائر العنقاء. او طائر الهدهد. او طيور الاوز العراقي. او السـنونو، التي احترقت اجنحتها تحت اشعة الشمس اللاهبة.

وهناك من اهلكتهم الوحوش. او الفواتك من الضباع. وفـــي هذه الغابات المحيطة بهذا النبع المقدس ضاعت نفوس كثـيرة. وتاهت اخرى وسط الاحراش. او سقطت تعباً وداستها الـــدواب او افترستها المخالب. او تيبست شفاهها عطشاً وهـــي تقطــع الرمال المتحركة في صحارى العزلة.

شاهد الطائر كل ذلك، فأدرك ان عليه التروي:

— (لن اكون الصيد الســـهل. الخـلاص قـاب قوسين او ادنى. جبل قـاف أمـامي. تحـت بصري.. جبل مـــن زمــرد. ومـاء بلـــون الحدائق).

يرتفع الجبل حتى يشق السماء ويدخل رمحه فيها. الشـمس ترقد هادئة وهانئة في حضنه، غير انها منتبهـــة. متربصـــة. النبع الذي يوزع الماء على البحار يفور وعينه.لا تنام. الكـــل يتربص بالطائر. الرحلة البعيدة انتهت. لم تعد هناك اودية سود ولا جمرات تحرق العالم. هنا موقع الخلاص. في هذا المكـــان يتقرر المصير. اللحظات الحاسمة، هي وحدها التي تقول كلمـة الفصل. الفتية الطائر يعلمون ان خلفهم مدينة وشعب. انتظـــار واحلام.. يعلمون ان الوباء يأكل الناس كما تأكل النار الهشيم.. يعلمون ان رحلتهم هي الامل لكل الذين ينتظرون الحيـــاة فـــي

الارض المنكوبة. لذلك لا بد من النجاح وان طال السخر.

اقترب الطائر الابيض النقي من قمـة الجبـل حتـى صـار بمحاذاتها حد التلامس، وبقوة السهم اندفع هابطا نحو النبـع. هبوطاً سريعاً مفاجئاً، بحيث لم يعط للشمس فرصة الانتبـاه. اذ عبرها وكأنه شعاع فضي هابط من السماء مر من امامها، فمـا عاد لهيبها نافعاً، واستقر في الضفة الاخرى الخضراء الهادئـة المسالمة.

وجد الطائر ـ الفتيه نفسه امام بحيرة صافية تسبح فيـها اسماك ملونة وتغرد على اشجارها طيور ملونة باصوات كأنـها موسيقى ناعمة، وثمة شجرة عملاقة وارفة الظـلال اوراقـها خضر، كأن خضرة الكون كله اجتمعت فيها. شجرة عجيبة تمتد غصونها الى مسافة لايحدها البصر، وفيها كـل ثمـار الارض مجتمعة وثمار أخر لم ترها عين بشر من قبل.

فكر الطائر بلون الفضة ونفوسه الفتية:

ـ ((ترى هل هذه هي شجرة الخلاص، مـادام هذا هو جبل قاف؟ اذن هـذه هـي شـجرة الخلاص فكلاها قرب بعـض. هكـذا تقـول الحكايات. هل هذا يعني اننـا عبرنـا الـى المستحيل الذي لا يصل اليه البشر قبل قيـام الساعة. وهل وصلنا الى نقطـة الخـلاص وموقعه.؟ وهذه البحيرة التـي لا يمكـن ان نجد مكانها في الاماكن التي اعتـاد النـاس

على رؤيتها. انها اخت هذه الشـــجرة او ام لها؟.. ربما.. اننا لم نر مثل هـــذا الـــهدوء وهذا السكون وهذا الجمال هـــل وصلنـــا؟.. واذا كان ذلك صحيحاً فاين الخلاص اذن؟.))

كف الطائر ــ الفتيه عن التفكير ونظر في الجانب المقـــابل للبحيرة فأذهلته المفاجأة. كانت الجهة المقابلة للبحيرة مـــرآة صافية بسعة صفحة السماء ولعله لم ينتبه لها كونها تمتد مـــع امتداد صفحة السماء. ولا تعكس الا صورة من يرغب ان يـــرى نفسه فيها. مرآة موشاة الاطراف بالذهب الخـــالص ومؤطـــرة بالياقوت. وكلما نظرت اليها رايت فيها اشياء جديـــدة. اشـــياء تسبح في الكون العجيب. ومخلوقات تسبِّح للخـــالق العظيـــم.. مرآة لا تعكس الا كل شئ جميل وكانها لـــم تصنـــع الا لرؤيـــة الجمال. مرآة لا تعكس القبح. وليس في هذا المكـــان كلـــه الا الجمال . الجمال البكر الذي لم تبصره العيـــون ولـــم تدركـــه العقول ولولا ان الطائر ــ الفتية يقف الان امام كل الذي يـــراه. لما صدق ابداً.

كانت صورة الطائر ــ في المرآة السماوية، صورة جميلـــة، غاية في الجمال. طائر تفيض العافية من كل جزء فيه، ويشـــع الجمال من روحه حتى كأنه الكائن الاجمل بين المخلوقات حتـــى في هذا المكان نفسه.

ومن خلف النبع جاءه الصوت:

ــ أيها الطائر.. يا مـــن تحمـــل ارواح الفتيـــه

الخَلّص ماذا تريد؟.. وما الذي حملـــك الـــى هنا؟

كان الصوت نفسه. الصوت الذي نطق باسم الجبل المـــرآة لاول مرة. الصوت الذي دلهم على الطريق. الصوت الذي قـــال لهم ((ابحثوا عن الخلاص)). وهو نفسه من كان يتابعهم فـــي رحلتهم المضنية.

قال الفتيـــة: اين انت ايها الصوت الحبيب.. ايها المعلم والدليل.

اجاب الصوت: انني معكم. اسمعكم. اراكم وقولوا ماذا تريدون؟

قال الفتيـــة: انت تدري ايها المعلم ماذا نريد؟

قال الصـــوت: اريد ان اسمع الذي تطلبون منكم. دعـــوني اسمع.

قال الفتيـــة: اننا نبحث عن الخلاص؟

سأل الصوت: أي خلاص؟

اجاب الفتيـــة: خلاص مدينتنا. خلاص شعبنا. خلاصنا من الوباء والمرض.

سأل الصوت: اليست لكم طلبات اُخر؟

اجاب الفتية: ان نعيد لمدينتنا ولاهلنا الوجه الجميل الذي انهكه الوباء، ان نعيد ما كان لنا.

سأل الصوت: وبعد؟

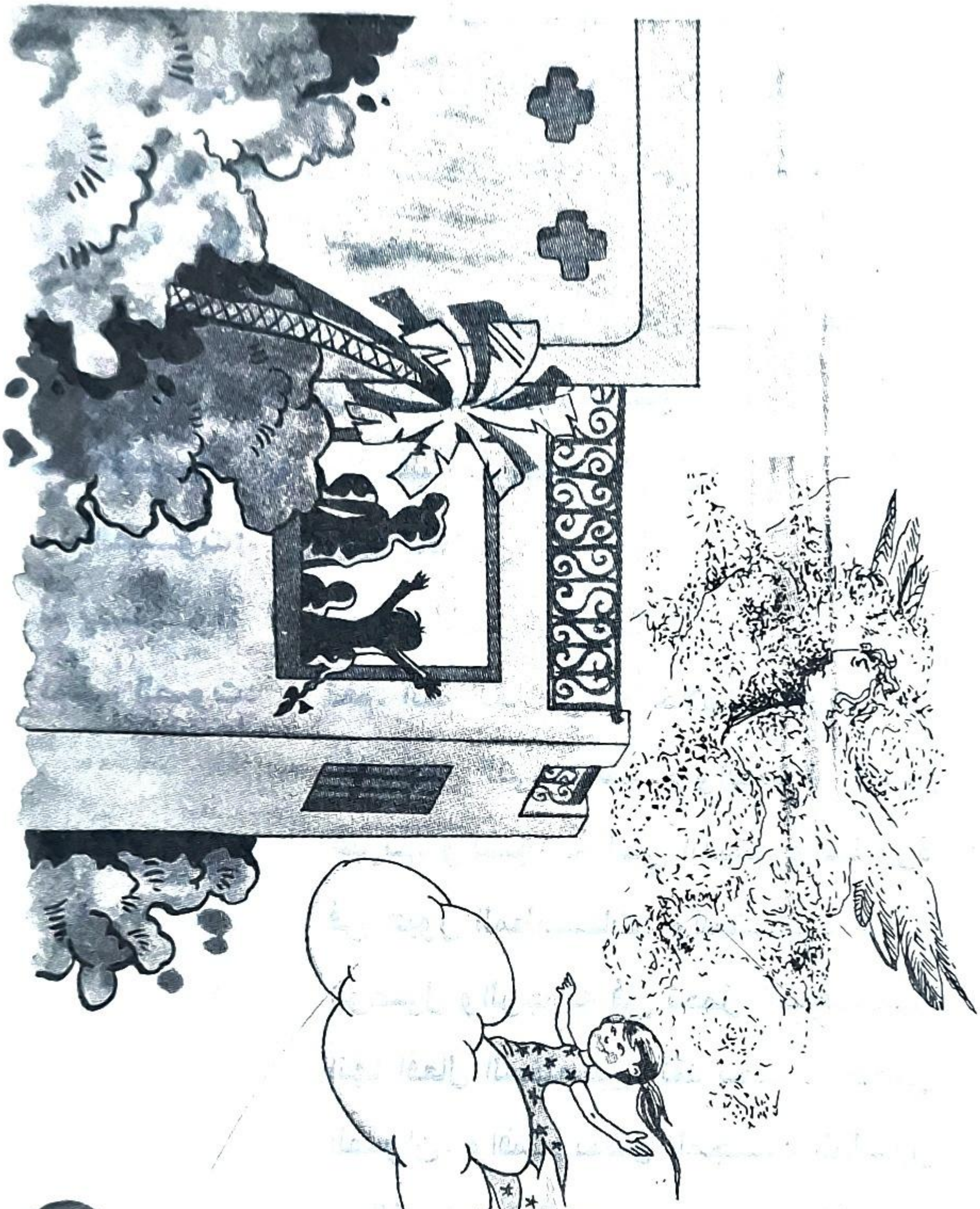
اجاب الفتية: لا شئ غير ذلك.

قال الصوت: انظروا الى شواطئ البحيرة.. الى ثمار هـذة الشـجرة العظيمـة الخـالدة.. ان احجار شواطئ البحيرة هي الزمرد النقـي والياقوت الصافي. كل شئ هنا حيث لـم تمسه يد خبيثة ولم تلوثه رغبة زائلـة.. ان كل حجر هنا اثمن مـن كـل كنـوز الارض. خذوا ما تشاؤون . فأنتم الاحـق بذلك.

رد الفتيـة : ولكننا لم نأت الى هنا.. ولم نتحمل كل الـذي تحملنـاه لكـي نـأخذ احجـاراً وجواهراً. لقد جئنا مـن اجـل خـلاص مدينتنا.. لا نريد غيره ولن نعـود مـن دونه.

عند ذلك قال الصوت : احسنتم ايها الفتية، احسنتم ياعظم الطيور.. انظروا في المرآة.. ماذا ترون؟

نظر الفتية في المرآة وقالوا : ليس فيها غير صورتنا نحن لا نرى الا صورتنا. نحن الطـائر بلـون الفضة البيضاء النقية.



قال الصوت: اعلموا اذن.. انكم انتم الخلاص. لا خلاص لمدينتكم ولا خلاص لشـــعبكم إلا بكم لن تعود مدينتكم الى ما كانت عليـــه بغيركم.

كان ذلك مفاجئاً. لم يكن فـــي الحســـبان وما دار بخاطر احد منهم .

قال الفتيـــة: ماذا قلت يا معلمنا الجليل؟

رد الصـــوت: انتم الخلاص.

لم يصدقـــوا: نحن الخلاص.. كيف؟

اجاب الصوت: نعم. انتم الخلاص. لا خلاص بغيركم. فالوديان التي قطعتـــم والبحـــار التـــي عبرتم. والشجاعة التي ابديتم. والمناورة في عبور المطبـــات، والمثـــابرة علـــى الوصول والرجولة في تحمل الصعـــاب. انها افعال المخلصين. لقد نحتـــم حجـــر الصوان. واقمتم تمثال المجـــد الملـــون بـــالقرمزي والمعجـــون بعـــرق التعـــب والمخلوط بدماء شهداء مسيرتكم ورحيل اطفالكم وخراب مدينتكـــم وارواح ابنـــاء شعبكم. لقد اقتحمتم الاهوال للوصول الى هنا، تبحثون عن خلاص اهلكم. تبحثـــون عما يهزم الوباء والحصار الذي فرضتـــه

المدن الاخرى عليكم لكي لا يصل اليـــها الوباء. عــودوا الــى مدينتكــم.. انتــم خلاصها سيتبع خطــاكم ويســير علــى هديكم كل شخص مــن شــعبكم يرفــض الموت بهذا الوباء اللعين. عــودوا الــى مدينتكم. انتــم الان اكــثر قــدرة علــى تخليصها من المــرض. عــودوا فــانتم الخلاص. انتم الخلاص .

بــغــــــداد

٢٥/ ٦ / ١٩٩٨

٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٠

الثأر..

- كان ذلك في العام ١٩٩٢ -

طلعت الاخبار على بدرية في السوق. جاءتها من غير ان تبحث عنها. ملأت روحها بالبهجة والفرح وايقضت نارالغضب والشماتة في نفسها في آن واحد.

تركت السوق وعادت الى البيت اشبه بالمهرولة، واول شئ فعلته حين دخلت، ادارت مفتـــاح الراديــو وبحثــت. غــيرت الموجات. انتقلت الى التلفزيون وضغطت علـــى زر التشــغيل، وجلست تنتظر الاخبار. الوقت عصرا.. موعد الاخبار مـــا زال بعيدا. نهضت من جديد. دارت في البيت، عيناها لا تســـتقران في مكان. تبحثان في زوايا المكان. زوايـــا البيـــت واركانـــه. زوجها عاد من عمله وهو متعب جدا، لكنــــه كعادتـــه هـــادئ الطبع، قليل الكلام، الا انه وقد لاحظ تصرفـــات زوجتـــه غـــير المعتادة ــ كانت اشبه بطفلة عادت توا من مهرجان للفـــرح ــ قطع صمته:

ــ ما بك يا ام منار؟

ردت عليه بسرعة: افرح يا ابا منار، افرح.

استغرب الرجـــل: افرح؟ .. وهل هناك ما يدعو للفرح؟

اجابت والفرحة تكاد تقفز من عينيها:

ــ نعم . نعم؟؟. لقد اهلكهم الله يا ابا منار. لقـد انتقم الله لنا منهم.

سألهـــا : انتقم الله لنا ممن؟

ردت : منهم... من الامريكان.

سألها مستغربا جدا: من الامريكان؟.... كيف؟

اجابــت: لقد اصابهم الزلزال.

سكت الرجل كان قد عرف بخـــبر الزلـــزال قبــل زوجتـــه. فالاخبار قد انتشرت كالنار في الهشيم، وضاعت لوس انجلوس تحت ضربات الزلزال المتلاحقة. لكن هل يفرح ذلك احد منا؟

كف الرجل عن التفكير وصمت صمتا طويلا. لكنه لم يكـــف عن التذكر. ولقد اعاد ما قالته زوجته مــــا حـــاول ان يغطيـــه بصمته الدائم والاصح ما يحاول ان يغطيه.

كان لهما قبل ايام طفلة صغـــيرة جميلـــة ومدللـــة. عذبـــة ورقيقة. اسمها منار. تجذبها الاشياء الملونة.. وفـــي غمضـــة عين نقلتها لعبة امريكية ملونة، او ما يشبه اللعبة الملونة الـــى السماء.

كان قد سقط ذلك الشـــئ الملـــون فـــي ســـاحة المدرســـة الابتدائية، وحين لمحه جمع من صغـــيرات المدرســـة ركضـــن اليه، وفجأة دوى انفجار هائل، اخذ معه ذلك الجمع الصغـــير. ولقد كانت منار اول الجمع الصاعد نحو السماء، كن باقـــة ورد صغيرة. طيبة وزكية. سافرت بسرعة الى الابد.

ومنذ تلك اللحظة اصبحت بدرية لا تطيق النظر لكـــل شـــئ ملون، ولا تسمع باسم امريكي الا ورفعت يدها تضرعـــا لله ان يأخذ صاحبه، ثم تحولت صلاتها الى دعاء متصل لا ينقطـــع لله رب العالمين تدعوه بالحاح شديد ان ينتقم من امريكـــا ومـــن الامريكيين.



ها هو الانتقام قد حصل. وان الله العظيم قد اجاب دعاءها. فكيف لا تفرح؟.. لكن زوجها صامتا، وهو كما يبدو غير راض لا عن الذي تفعله، ولا عن الذي حصل. انه صامت كتمثال طيب القسمات.

سألته: هادي، ما بك؟

اجابها: لا شئ.

سألته: اراك صامتا؟

اجابها بسؤال: وماذا تريدينني ان افعل؟

سألته: الم تسمع ما قلته لك؟

سألها: ماذا قلت؟

اجابت: لقد انتقم الله لنا من الاشرار.

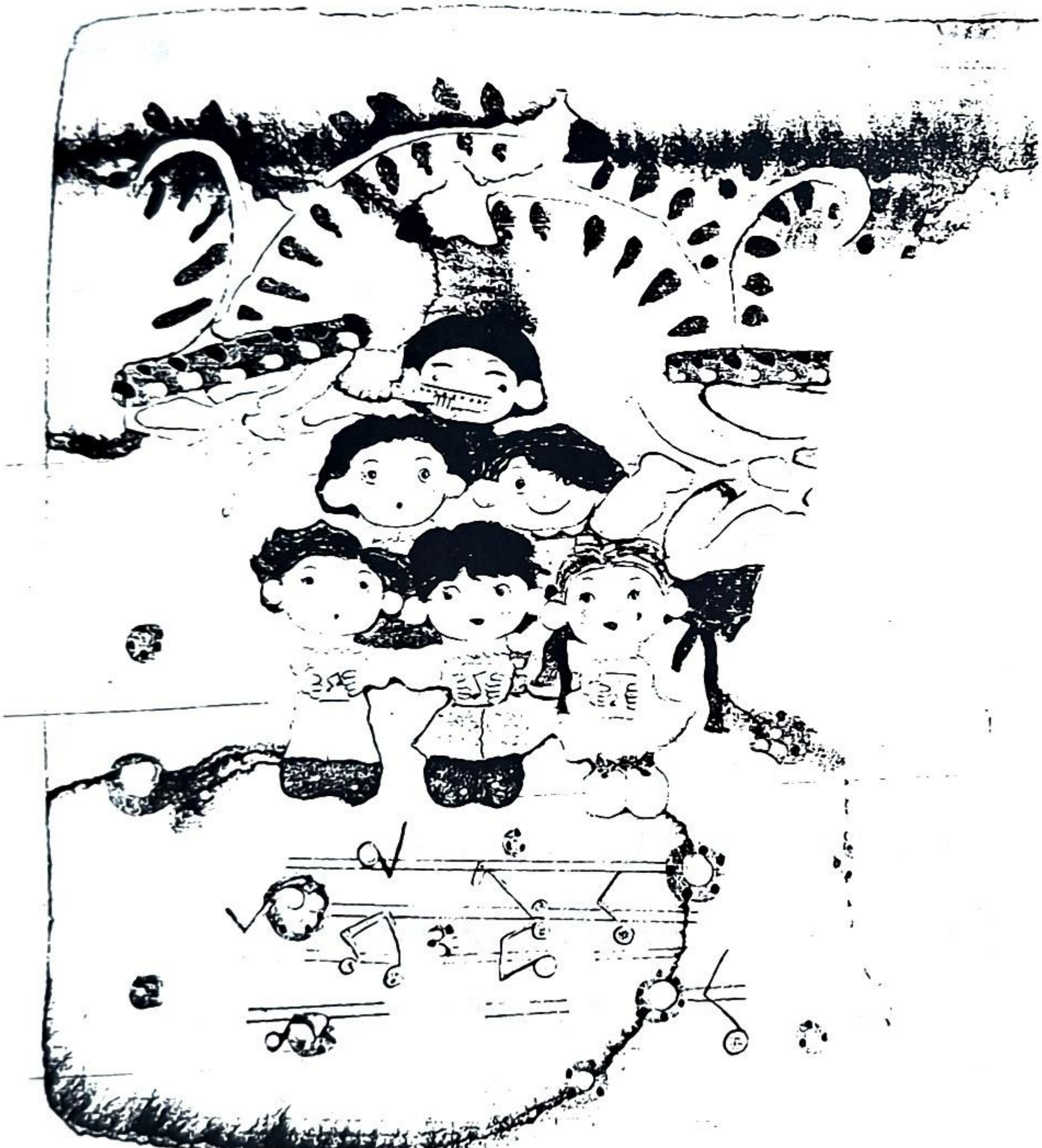
قال لها: لا يجوز الفرح في مصائب الاخرين.

استغربت: الاخرون؟ من هم الاخرون؟ الامريكان؟

اجاب : نعم.. الامريكان وغيرهم.

ردت بغضب شديد. غضب كاد يكون انفجارا...

— انهم قتلة الشعوب.. الامريكان قتلة الاطفال.. قتلة منار. قتلوا منارك. هل تريد ان اذكرك بذلك. قتلوا طفلتك الوحيدة، قتلوا اعز ما في حياتنا. تذكرت الان ام تريدني ان اذكرك من جديد.



اجابها بهدوء: لم انس. ما نسيتها لحظة واحدة. منار هي حزني. صمتي. المي. وليس منـــار وحدها. منار واخوتها اطفال الوطن.

قالت: وتقول.. لايجوز الفرح. كيف هذا؟ كيف تفسر ذلك؟

قال لها: الله لا يترك جرم بغير حساب، ولا مجرم من غير عقاب. الله يعــرف... ولكــن لا يجوز الفرح في المصائب.

سألته غاضبة ومستغربة:

— وحزني، وحزنك، وحزن اهلنــــا، ومنارنـــا. ابنتنا الصغيرة البريئة التي لا تعرف شـــيئا. وبنات الجيران واطفالنا جميعا. ثم انظر مــــا حل بنا. ما حل ببلدنا؟ الم يصنعوا مصائبنا.

اجابها: نعم. ولكن هذا شئ وذاك شئ اخر. الله نظر بعين وانت تنظرين بعين اخرى.

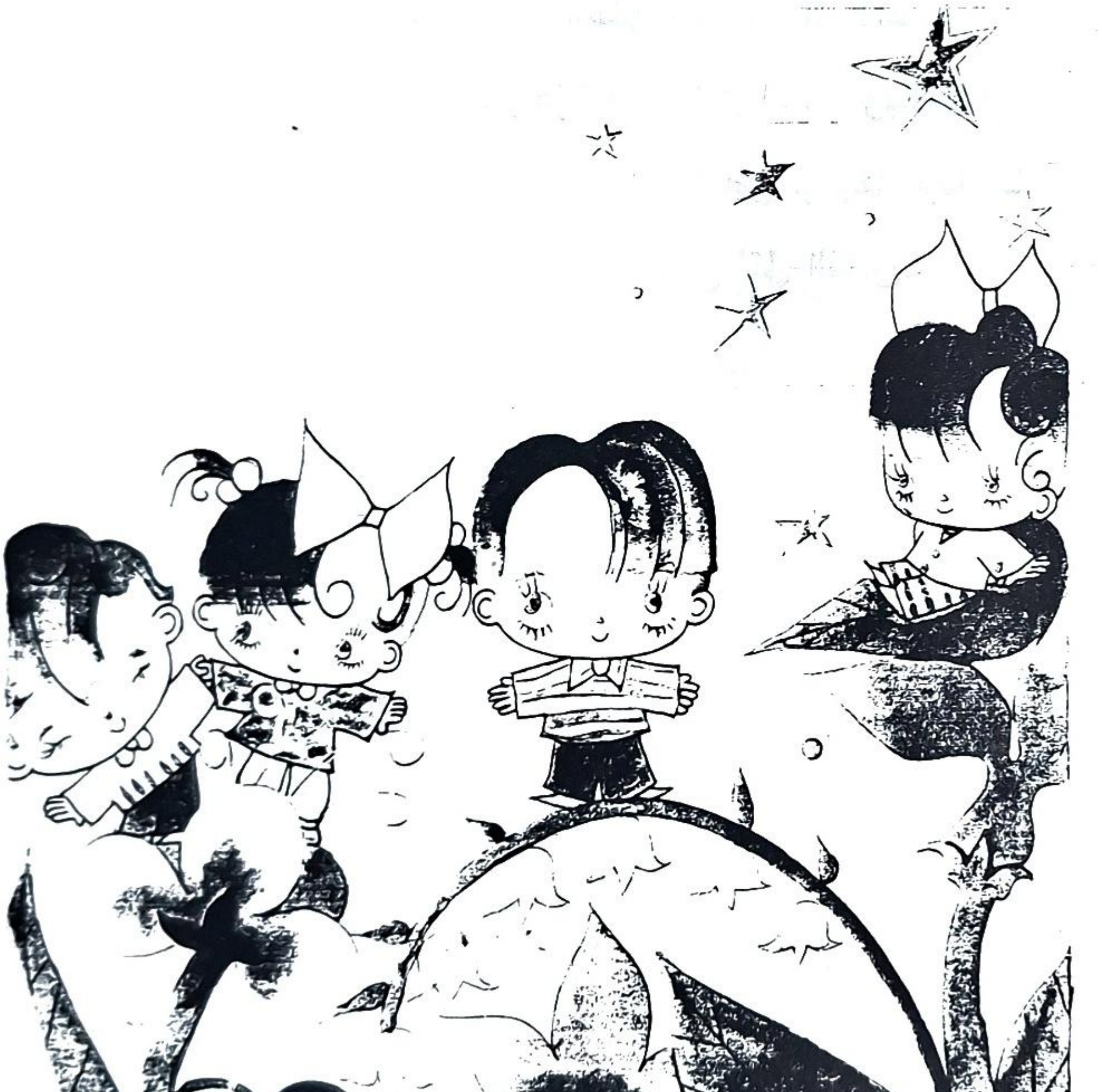
لم يعجب بدرية ما قاله زوجها. لكنها صمتت. وفجاة جــاءت نشرة الاخبار. عرض التلفزيون زلزال لوس انجلــــوس. كـــان الدمار عاتيا. مهلكا. طاغيا. النيران في كل مكـــان. الشـــوارع تحولت الى كتل كبيرة من الاسفلت. الارض شــــقوق عجيبـــة. المباني تحولت الى ركام من الاجر والاسمنت. البيوت هبـــــاء. كان هولا كبيرا. الرعب في الوجوه. في النفوس. الفزع يصرخ في كل شئ. بدرية تنظر. تحدق في شاشة التلفزيون.



التلفزيون مستمر في عرض المأساة وكأنه قرر ان يريها كل شئ. كل ما تريد., يريها انتقام الرب العظيم من قتلة ابنتها. عيناها مسمرتان في شاشة التلفزيون لكن روحها صارت في مكان اخر. عيناها تتابعان وكلمات زوجها في اذنيها (لا يجوز الفرح في مصائب الاخرين). ترن كالجرس..وتغير وجه بدرية. سالت دمعتان ساخنتان من عينيها المتعبتين على خديها الضامرين. تذكرت ابنتها منار. تذكرتها يوم اخذ روحها الشئ الامريكي الملون. كانت ام امريكية تحمل طفلتها بين يديها وهي تصرخ، تماما كما كانت تصرخ وهي تحمل منارها. الموقف نفسه. المأساة عينها تتكرر في المكانين المختلفين. رغم الاختلاف في صنع الماساة والسبب. النتيجة واحدة. ما زالت الدمعة الساخنة على خد بدرية الضامر.

نهضت. توضأت، ثم وقفت امام القبلة وبصوت مسموع صلت. اطالت صلاتها. واخيرا رفعت يديها بالدعاء متضرعة لله العظيم:

— (يا رب. يا عظيم. يا من لا تخيب دعوة المظلوم. لا توجع قلوب الامهات. كل الامهات. في كل مكان، باخذ اطفالهن منهن. يا رب. يا ارحم الراحمين كف انتقامك عنهم من اجل الاطفال، فهم احبابك. وهم زينة الحياة الدنيا. يا رب انت على كل شئ قدير.)



كان زوجها ينظر اليها بصمت، وقد ملأت العــــبرة عينيــــه، لكنه تمالك نفسه. وما ان اتمت صلاتها ورفعت سجادة الصـــلاة عن الارض حتى سألها:

— ما الذي فعلتيه يا ام منار؟

اجابت : انني اصلي من اجلهم.

سألها : الم يقتلوا منارك.

اجابت : نعم ولكنها ستكون دليلا لاطفالهم.

سألها : ونحن. وحزننا. وحزن اهلنا. وبلادنا؟

اجابت : سنكون دليلا لاهل الارض جميعا. وبلادنا ستكون المزار والمحج لكل الناس.

سر الابل الطائفية

حين حاصر الاعداء تلك المدينة الطيبة، الغافية على ضفاف النهر الكبير، صمد اهلها صمود الابطال.

لكن الحصار استمر زمناً طويلاً وصار يضيق الخناق على اهلها كل يوم اكثر من اليوم الذي سبقه. وبدأت المواد الغذائية تقل واخذ الجوع يهدد الناس. وخشي الناس من خارجها ان تتفشى الامراض والاوبئة في المدينة. وان ينجح العدو في حصاره لها.. بات الناس خارج المدينة يخشون سقوطها الذي صار متوقعا.

لذلك صار هم الناس الاكبر هو ايجاد وسيلة سريعة لايصال الطعام والدواء والمؤن للداخل. غير ان الوسيلة استعصت عليهم. الزمن يمر والحصار يقوى والجوع في الداخل يشتد. المدينة في مهب الريح. ناسها في ضعف مستمر. الخوف تعظم شوكته. الخوف من كل شئ. من سقوط المدينة. من تسلل العدوى . من الاجتياح . والناس في الخارج لم يهتدوا الى الوسيلة الناجحة.

ضاع حساب الايام وما عاد الناس يتذكرون اليوم الذي حوصرت فيه المدينة الغالية العزيزة، انهم فقط يفكرون ويبحثون عن فكرة توصلهم لانقاذها. لكن ذلك صار بعيدا عن اذهانهم، حتى جاء في يوم الى قرية تقع شمال المدينة، رجل من البادية.. كان الرجل يسوق قطيعاً كبيراً من الابل صوب النهر. وفي مكان قريب جدا من القرية توقف مع ابله وتركها تشرب الماء.

انتشرت الابل وهي تورد الماء على مسافة كبيرة نسبياً، وكان بعض اطفال القرية يلعبون قرب الشاطئ. والحق انهم كانوا يلعبون في مكانهم هذا قبل مجئ رجل البادية وابله. لذلك ما ان ابصروها حتى كفوا عن اللعب. وعندما تدافعت لكي تشرب الماء تركوا لعبهم تماما واقتربوا منها.

كان الاطفال يقتربون بحذر شديد من الابل، بل ويراقبونها بحذر شديد ايضا. لكنهم صاروا يتجرأون شيئا فشيئا ويقتربون كذلك.

نظروا لهيئاتها الغريبة، لرقابها الطويلة، واخيراً ابتدأوا يتلمسونها. وفجأة صاح احدهم:

— ياه، ما هذه البطن الكبيرة.

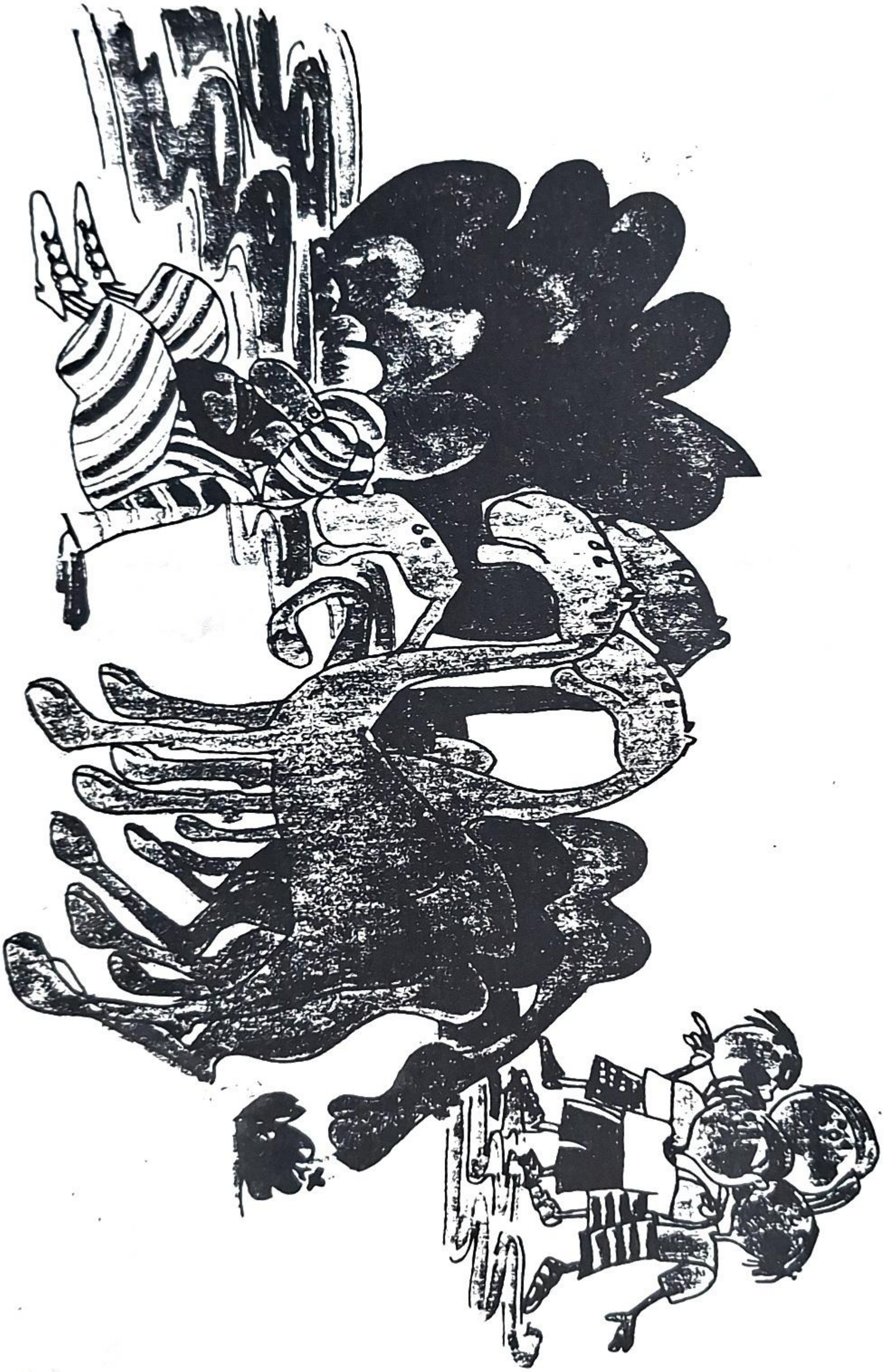
تجمع الاولاد كلهم حول الجمل الذي تلمس بطنه صديقهم، واخذوا يلتمسونه ايضا.. صاح طفل اخر:

— انه يحتاج الى قدر كبير من الطعام ليمتلئ.

في هذه الاثناء كان رجل من القرية يقف على الشاطئ تابع استغراب الاطفال من بطن الجمل، ثم سمع جملة الطفل الاخيرة (انه يحتاج الى قدر كبير من الطعام ليمتلئ) فصاح هو ايضا:

— وجدتها.

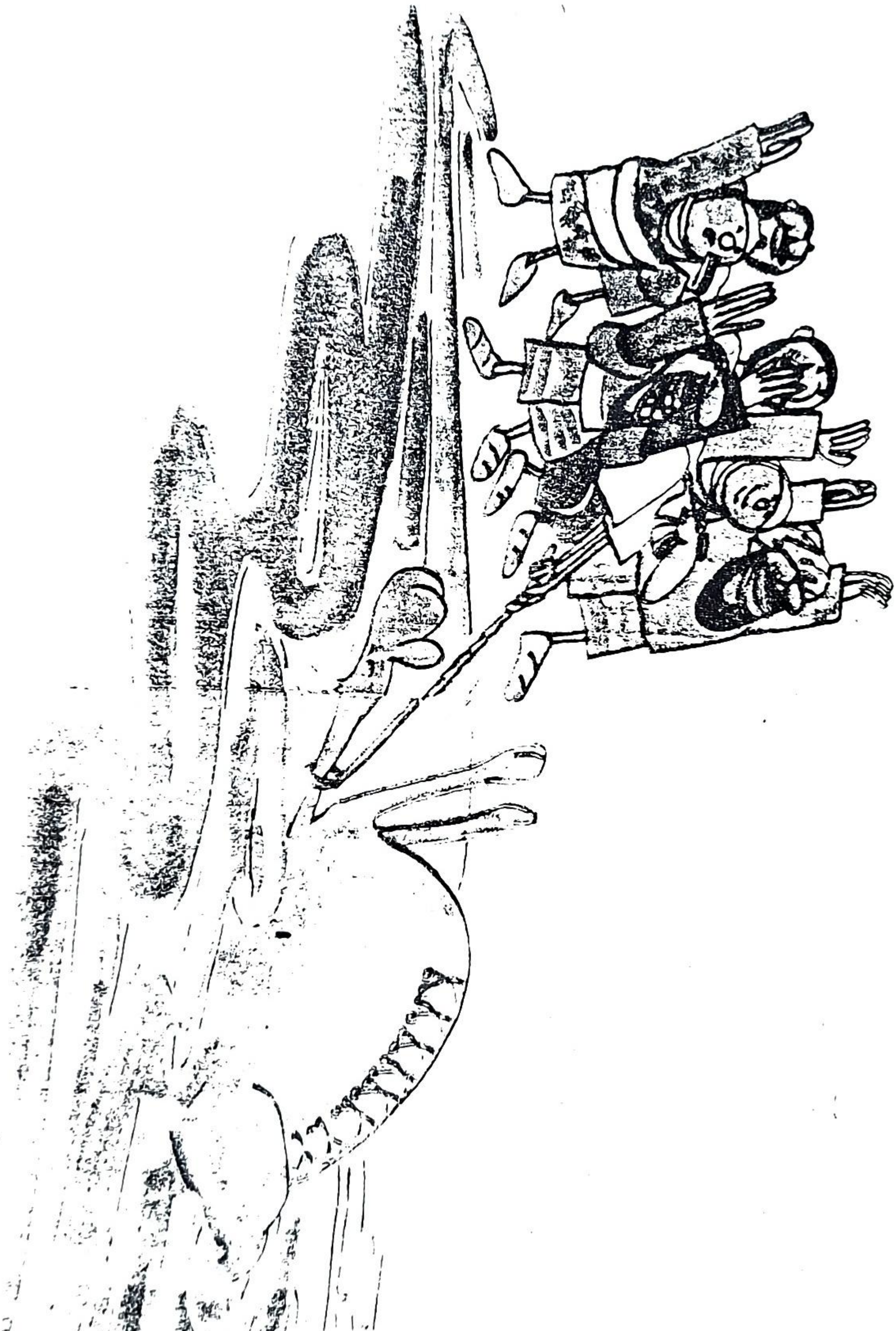
وهب من لحظته الى قريته جمع الرجال، اخبرهم بما رأى وما سمع. ثم اخبرهم بالفكرة العظيمة التي اوحى له بها حوار الاطفال.



من اليوم نفسه.. اخذت تطوف في النهر وتنحدر صوب المدينة ابل مذبوحة. طافية منتفخة. كان الاعداء يظنونها ابلا اصابها وباء خطير، كما وصلهم الخبر. اما اهل المدينة فقد عرفوا سرها الحقيقي. فاخذوا يسحبونها من النهر. ثم يفتحون بطونها. كانت البطون الكبيرة معبأة بانواع الاطعمة، والمواد الطبية، والتجهيزات:

الابل الطافية تزداد في النهر، وصمود المدينة يقوى، وصار الاعداء اشد حيرة. ولم يجدوا تفسيراً لقوة المدينة التي تتزايد يوما اثر يوم.. حتى وصلت النجدات لانقاذها وهزم الاعداء.

عادت المدينة حرة تعانق النهر وتحكي لاجيالها المتعاقبة عن الحصار الذي حطمه المدافعون الابطال بمعونة الابل الطافية وسرها العظيم.



ابناء الشمس

في مدينتنا خبز وتمر وماء. واطفالنـا يلعبـون بيـن النخيـل والسواقي وفي باحات البيوت.

وفي تلك الايام نزل الى المدينة رجل بوجه احمر وســروال اصفر، وشعر يلمع، ويضع عليه قبعة عريضة وقال:

ــ انا ابن الشمس.

وصدقناه فقد كان وجهه احمر وســرواله اصفـر وشـعره يلمع.. وقبعته عريضة.. ثم قال:

ــ امي الشمس، اعتطتني الكثير، فانا استطيع ان اقتل من اشاء واعفوا عمن اشاء.

واخرج شيئا له زناد خاص وسماه ـ بندقية ـ واطلق منها رصاصة اصابت حيوانا مسكينا فقتلته:

وقال لنا: ارايتم كيف تقتل؟

ولقد رأينا بالفعل ان بندقيته تقتل.

ثم قال: الشمس امي، ومن السماء اجدادي.

ولي كل الحق ان انال كل ما اريد.

فصدقناه ورضينا ان نلبي أي طلب يطلب خوفـا مـن امـه الشمس ومن طلقة البندقية.

عندها قال ايضا: ان لي عيونا كثيرة ترى من بعد فاستغربنا.

قـال: لا تستغربوا، فانا حتى عندما اذهب الى طرف المدينة البعيد، ارى ما تفعلون هنا.

فسكتنا. وكنا بين مصدق وبين من راوده شك، لكــن الــذي شك لم يستطع ان يعلن شكه.

كان لابن الشمس اعوان شقر مثله. لكنه لم يكتــف بــهم، فاختار من بيننا واحدا.

اخذه الى جانب، همس بأذنه شيئا، ثم عاد به الينا، وقال لـه امامنا.

— انت الان وكيلي.

بعد ذلك حصرنا جميعا في زاوية وخط علــى الارض خطــا وقال:

— اسمعوا جيدا ما اقوله لكم الان.

فانصتنا كما اراد.

— انظروا الى هذا الخط.

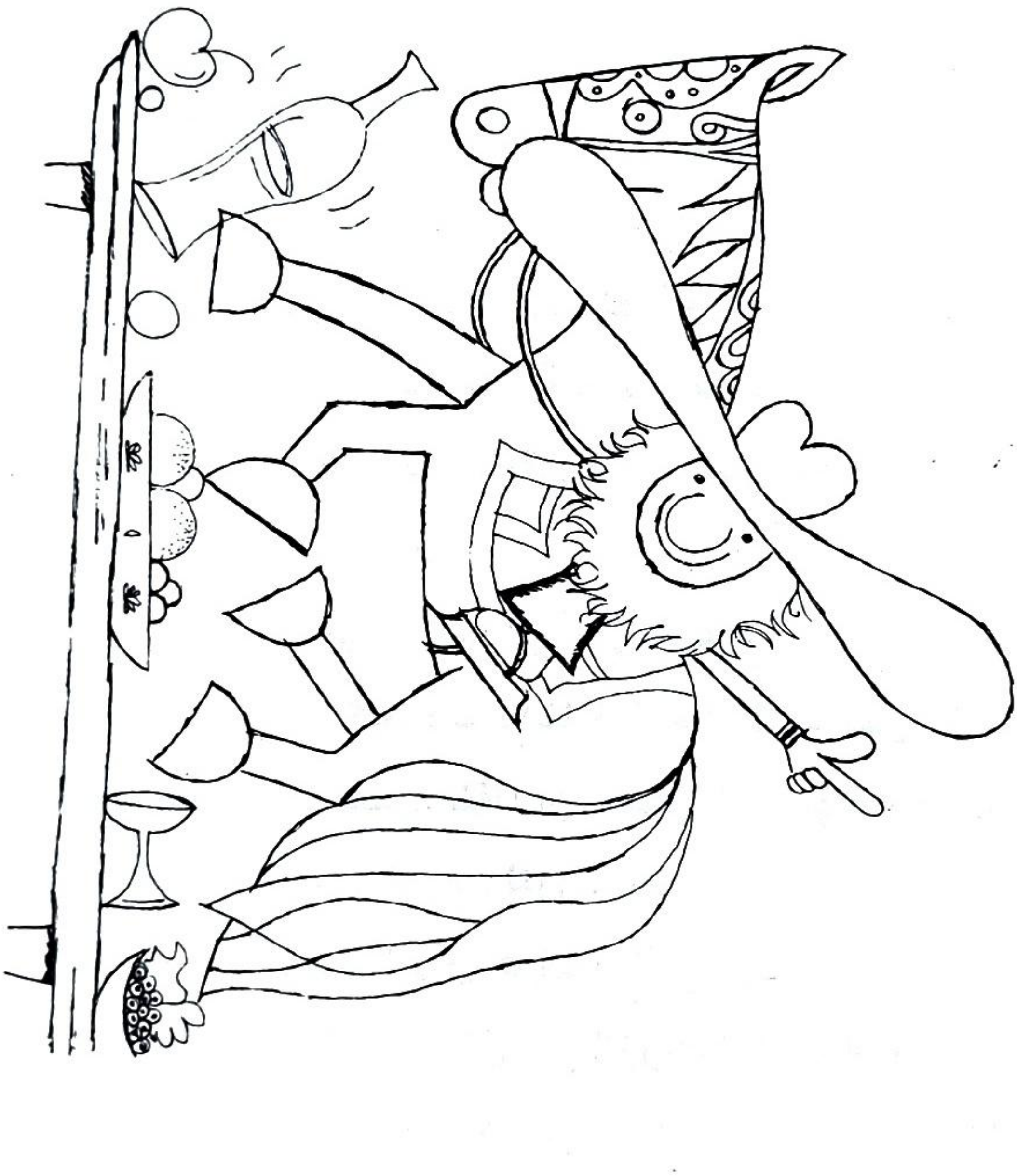
وحملقنا جميعا بخطه المرسوم على الارض. كــان مجــرد خط. خطه بطبشور اخرجه من جيبه. لكننا والحق يقال، لم نكن قد رأينا من قبل خطا بطبشور فسكتنا مرة اخرى. ولقد شــعرنا بقلوبنا ترتجف بين اضلعنا.

— رايتموه.

قال الوكيل:

— نعم يا مولاي رأوه.

فعرفنا ان ابن الشمس صار سيدا لهذا الرجل الــذي كــان منا.. والحقيقة اننا بدأن نستغرب، فالرجل ما عاد يقف معنــا. انه الان يقف خلف او بين يدي ابن الشمس.. لكن عندما



يكلمنا صار يرفع صوته:

— اسمعوا كلام ابن الشمس ولا تخالفوه.

ولم نخالف ابن الشمس. ولا هذا الشخص الذي اصبح يسمى الوكيل.

قال ابن الشمس:

— ابقوا في مكانكم ولا تعبروا الخط ابدا.

وسكت. نظرنا في عيون بعضنا، فلم نفهم في البداية ماذا يقصد. ويبدو انه عرف اننا لم نفهم قوله فعاد يقول:

— من يعبر الخط ستحرقه أمي الشمس او تصيبه بالصاعقة او ترجمه بالمتفجرات..

وأردنا أن نسأل: الى متى سنبقى هنا؟.. غير انه أدرك مانفكر به.

— ستبقون هنا الى آخر الدهر.

وأردنا أن نحتج ـ كيف؟ ـ لكننا خفنا من الشمس التي وهبتنا كل شيء فيما مضى. خفنا أن تغضب لابنها وتحرقنا كما قال.. لذا سكتنا مرة أخرى. لكن ـ كيف نعيش؟ هذا ماصرنا نفكر به.. ومرة اخرى عرف بماذا نفكر:

— سنخرجكم كل يوم لتزرعوا الاشجار وتجنوا لي الثمار. من الان سيكون عملكم لي مقابل أن تبقوا أحياء.

ثم صمت.. ويبدو انه صار رقيقا..



– وسأمنحكم بعض المال للطعام وشراء بعض الثياب الرخيصة.

وسكت من جديد. نظر في وجوهنا. تصفحنا وجها وجها. ثم قال بحدة:

– لكن اياكم ان تطلبوا المزيد فليس لدي القدرة على اعالة كل هذا الجمع وبشكل مرفه.

وقبل ان ينصرف التفت الى الوكيل:

– كن قاسيا مع من يخالف الامر.

ثم انصرف..

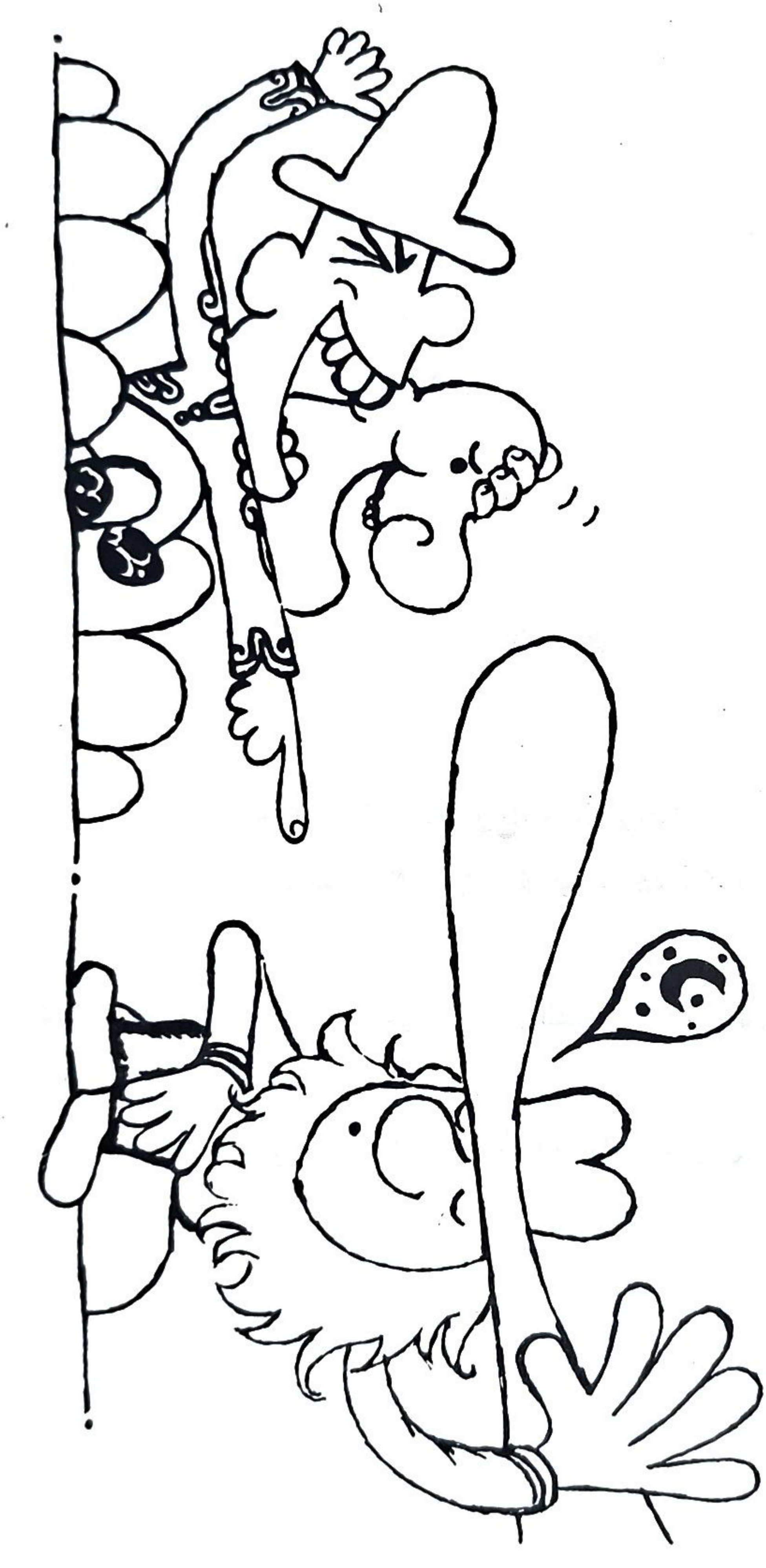
* * * * *

كان المكان الذي حصرنا به ابن الشمس يضيق بنا. ثم صار يزداد ضيقا يوما بعد يوم. ولقد حاولنا مرارا ان نوسعه.. لكن كيف؟ فالمكان محصور بين حائطين من الخلف وخط الطباشير من الامام. وكان الوكيل يوضح الخط كل يوم. وكان هو الوحيد القادر على عبور الخط دون أن تحرقه صاعقة. لذا فهو يردد دائما:

– الشمس لا تحرق وكيل ابنها.

وكان فخورا بذلك.

* * * * *



غاب عنا ابن الشمس ولم نعد نراه الا في اوقات مواسم جني الثمار. لكننا كنا نجده دائما في شخص الوكيل. كما ان الشمس صارت تذكرنا به. ولقد أصبحنا لا نحبها كما كنا. لانها لا ترد ابنها عنا، ولا تردع وكيله. وبدانا نهزل. شحوب وهزال. تعب وجوع. وكبرت بطن الوكيل حتى تكرشت، وصار له لغد متهدل ورقبة عريضة. لا أحد يعرف كيف تحول ذلك الرجل النحيف الى تل من اللحم. نحن فقط نعرف انه يأكل كثيرا، كثيرا جدا.

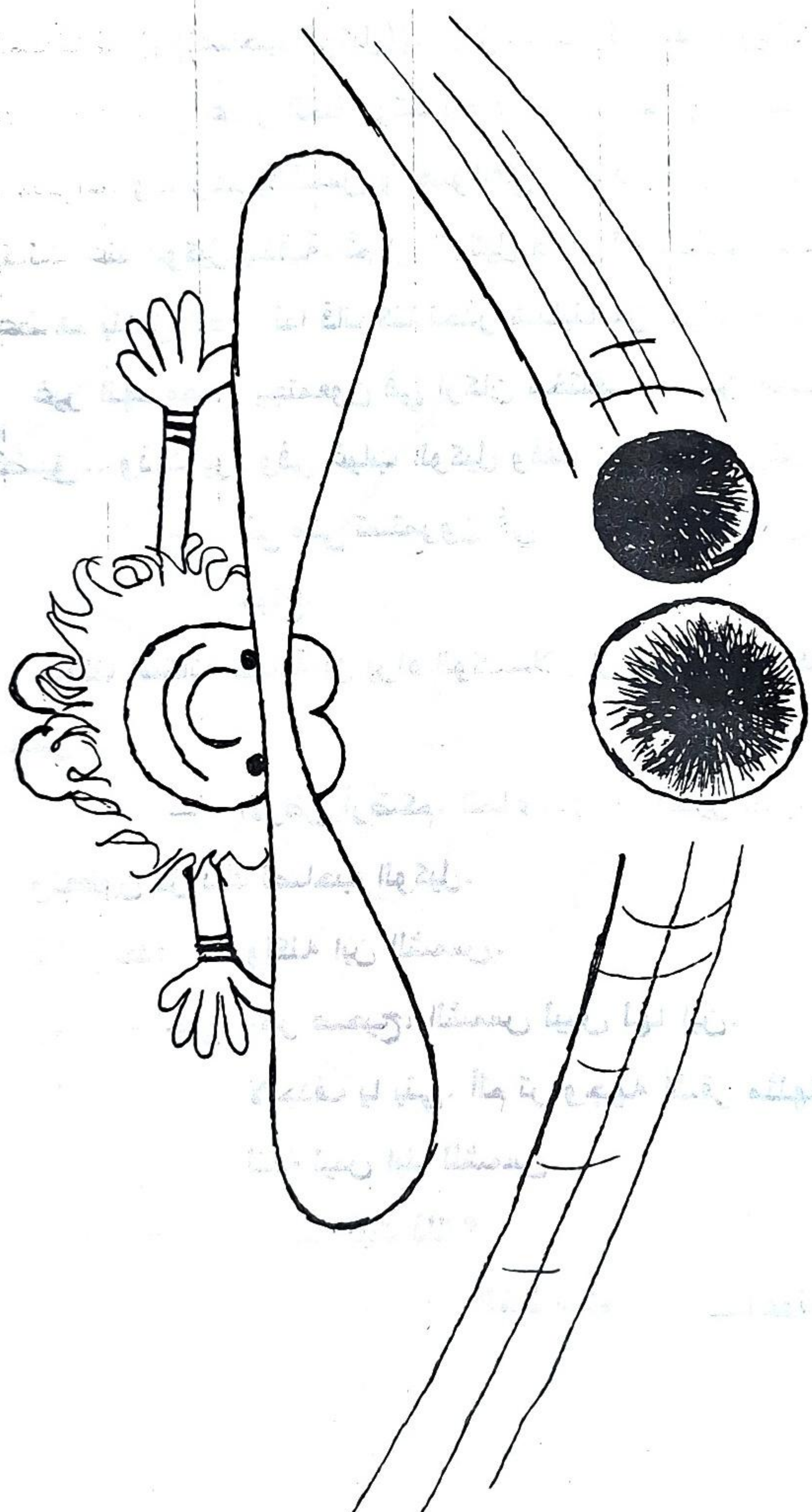
* * * * *

ابتدأنا نتذمر..

وفي يوم، واثناء عملنا في المزارع، رأينا رجلا اسمر قد اختلى ببعض الفتية خلف مرتفع من التراب.. بعد ذلك صرنا نسمع همسا..

كان بعض الفتية يختلون في الاركان الصغيرة ويتهامسون.. وابتدأ البعض منهم يقول بصوت عال:

— الى متى نشتغل لهذا الوكيل وصاحبه.



ومن يومها لم نعد نسمي ـ ابن الشمس ـ باسمه.. أضحينا نقول ((صاحب الوكيل)).. وأزداد تحرك الفتية بيننا، يحرضوننا على عبور الخط. وكنا نخاف فنردعهم أو نلزمهم بالسكوت. ونذكرهم بالشمس والصواعق والبندقية والوكيل. وكانت عند الوكيل بندقية. ثم ان الوكيل صار له وكلاء صغار أعطاهم بنادق ايضا. لذا فأنا كنا نحذر شبابنا من الاندفاع..

غير انهم مضوا يجتمعون في اركان مختلفة من مكاننا الضيق.. وذات يوم وفي غياب الوكيل وقف فتى اسمر وقال:

ـ الى متى تستمرون في الاشتغال لغيركم وانتم جياع.

حاولنا اسكاته مخافة ان يراه الوكلاء او يسمعوه لكنه استمر:

ـ الارض أرضكم. الماء ماؤكم. الخير خيركم.

وتعطون كل ذلك لصاحب الوكيل.

قال واحد: ولكنه ابن الشمس.

رد عليه الفتى: غير صحيح، الشمس ليس لها ابن.

قال آخر: لاتجدف يا بني. ألم تر وجهه أشقر مثلها.

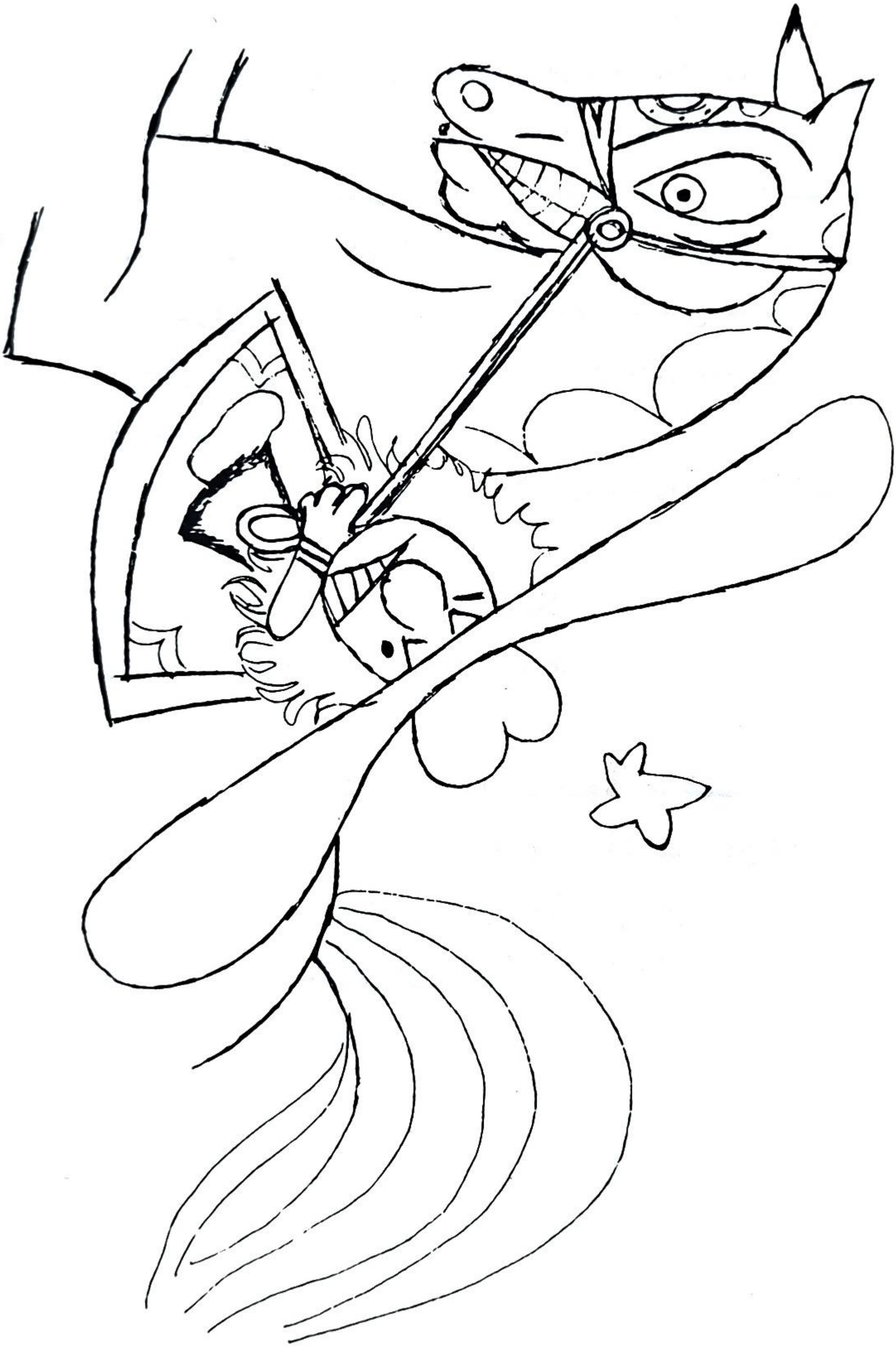
رد الفتى: لكنه ليس ابنا للشمس.

صاح واحد: وكيف تثبت ذلك؟

قال الفتى: الم يقل من يعبر الخط ستحرقه الصاعقة؟

رد الكل: نعم قال ذلك.

قال الفتى: حسن، سأعبر الخط.



ضج الناس وحاولوا ان يثنوا الفتى عن عزمه. غير انه اصر.. وفجاة، عبر الخط. كان الناس قد ابتعدوا عن الخط واغمضوا عيونهم خوفا من شظايا الصاعقة، أو أن يروا هذا الفتى الشجاع وهو يحترق. لكنهم بعد ان فتحوا عيونهم، شاهدوه يقف في الجانب الاخر من خط الطباشير. ثم عاد وعبر مرة اخرى. وعاد وعبر. واستمر هكذا حتى اقتنع الناس ان الشمس لا تحرق من يعبر الخط. بعدها تجرأ فتى اخر وعبر وتبعه ثان وثالث.

وأخيرا مسح الفتيان الخط عن الارض، فصارت بلا خط فاصل، فعبرنا جميعا الى المدينة.

صاح الفتى الشجاع: احذروا الوكلاء.

وصاح اخر: مزقوا الوكلاء.

وصحنا جميعا: نحن ابناء الشمس.

واندفع ناسنا في كل الطرق والتقينا بالوكلاء. غير انهم كانوا يفرون منا في اتجاهات بعيدة. ولقد رأينا ـ ونحن نندفع في طرق المدينة خطوطا كثيرة مرسومة على الارض. ورأينا اناسا كثيرين محصورين في اماكن وزوايا ضيقة. ورأينا فتيانا يمسحون الخطوط.

منذ ذلك الحين صرنا نطرد الوكلاء واصحابهم ونتجه نحو العمل. فقد تعلمنا كيف نمسح الخطوط التي تفصل بيننا وبين مدننا وقرانا.. وعدنا نحب الشمس الطيبة كما كنا.

السر

اعتاد الاب ان يحكي لطفليه كريمة وصادق في كل يوم حكاية المساء وذات مساء قال لهما:

— ساحكي لكما اليوم حكاية جميلة.

سألت كريمة: عن ماذا ياابي؟

اجاب الاب: ستعرفون ذلك من القصة.

وابتداء الاب يحكي لطفلين الحكاية:

— (في احدى الحروب التي مرت على البشر. كان جيش احدى الدول يدافع عن بلاده. وقد استطاع بعد جهاد طويل أن يصد الجيش المعتدي وان يطرده بعيدا عبر نهر كبير. لكن هذا النهر يقع في ارض الدولة نفسها.

وفي الجهة الاخرى من هذا النهر كانت هناك قلعة ضخمة شيدت منذ زمن بعيد احتلها العدو وجعلها مستودعا كبيرا لاسلحته.

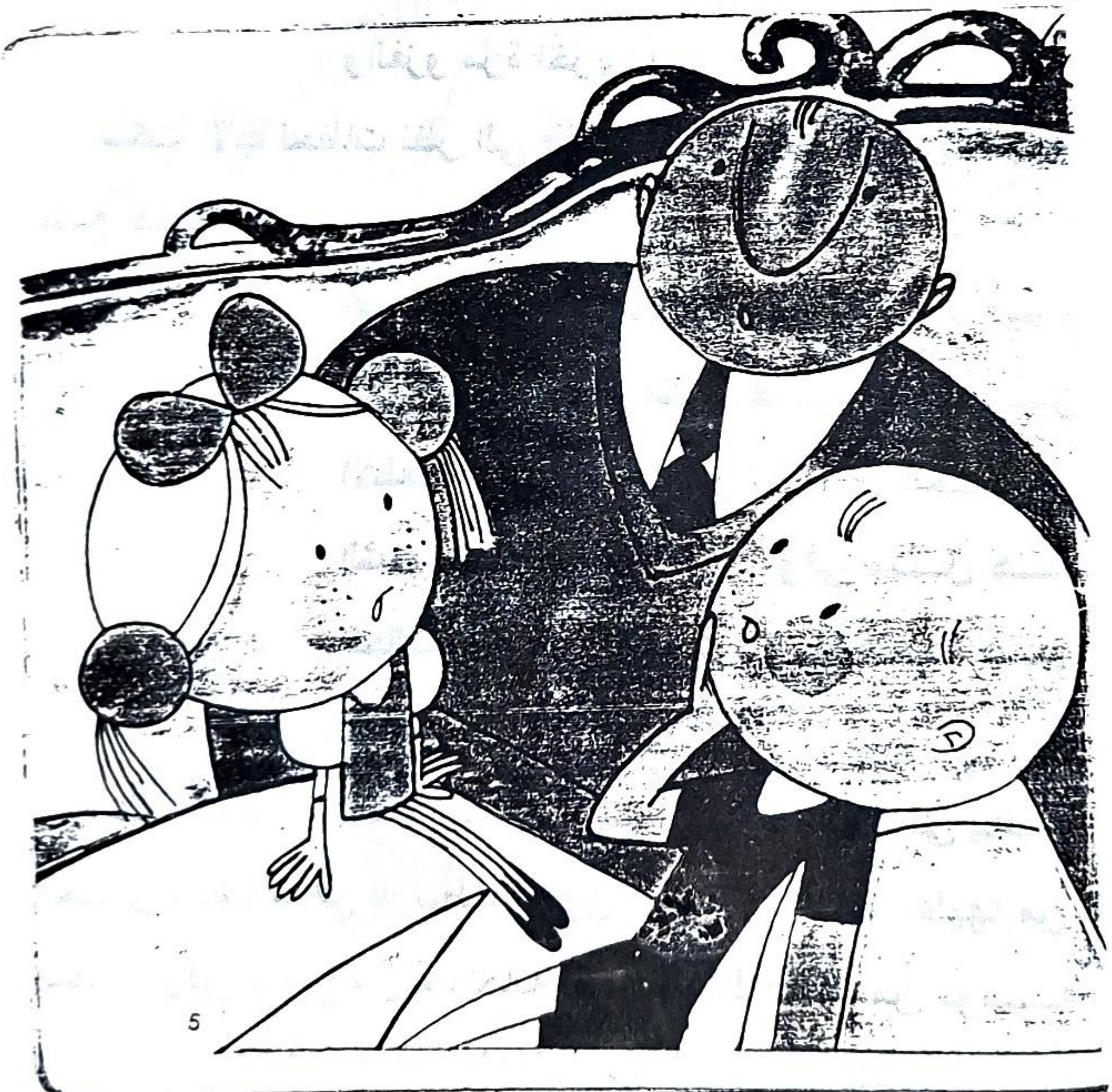
وعندما حاول القائد عبور النهر فكر اولا ثم قرر ان يتوقف)

سأل صادق: لماذا توقف ياأبي؟

اجاب الاب: لانه سيفشل مادام عدوه يحتل القلعة.

سألت كريمة: وهل سيبقى متوقفا والعدو يحتل جانبا من بلاده ياابابا.

اجاب الاب: هذا ما ستخبرنا به القصة.


5

ثم اكمل:

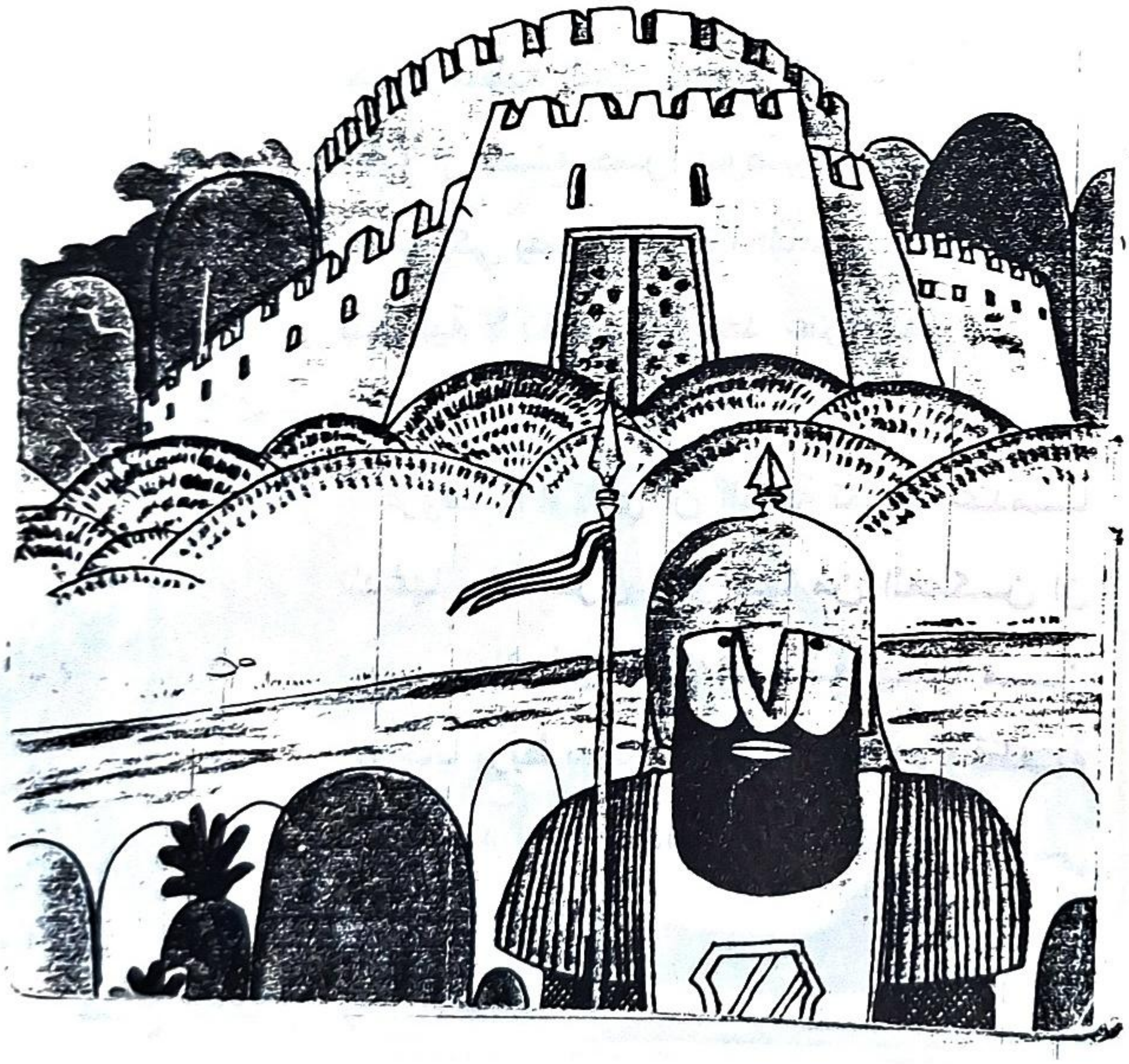
— (فكر القائد ياأولاد.. ستكون مغامرة فاشلة ان هو حاول العبور ما دامت القلعة بيد عدوه لذا لم يجد غير الانتظار وسيلة لكنه ظل مشغول الفكر كثيرا فهو يعرف ان العدو منهوك القوى الان وقد يستعيد قواه بتشكيل جيشه من جديد ومن ثم يبدأ بالعدوان والغزو مرة اخرى.)

سكت الاب لحظات نظر الى طفليه قرأ اللهفة في عيونهما تابع حكايته:

— (في ايام الحروب يمول الجنود بالغذاء لايام طويلة وهذا الغذاء مكون في اغلبه من الاطعمة التي لاتفسد بسرعة. مثل الحلوى الشاي السكر واشياء اخر. وفي مثل هذه الحالة يحاول الجنود المحافظة على اغذيتهم.

اعتاد القائد ياأولاد ان يملا اناءاً كبيرا بالماء ثم يجي بعلبة الحلوى ويضعها في الوسط من دون ان تغرق حفاظا عليها من النمل.. وفي صباح من صباحاته تلك استيقظ القائد من نومه وحين اراد ان يفطر وجد مفاجأة غريبة لم تخطر على باله فقرر ان يجمع جيشه من ساعته تلك.

قال الاب لولديه: اتعرفان ماذا راى القائد؟



اجاب الطفلان المشدودان للقصة: لا يابابا.

اخبرهم الاب: لقد رأى قطعة الحلوى ياكلها النمل.

صاح الطفلان: كيف؟ ان الماء يفصل بين النمل والحلوى

قال الاب: هنا يكمن السر وستعرفان ذلك بعد قليل.

ثم اكمل:

- حتى يستطيع النمل العبور الى الحلوى كان عليه ان يصنع جسرا للوصول اليها وليس امامه لكي يصنع هذا الجسر الا القيام بتضحية لا تخطر ببال احد غير النمل..

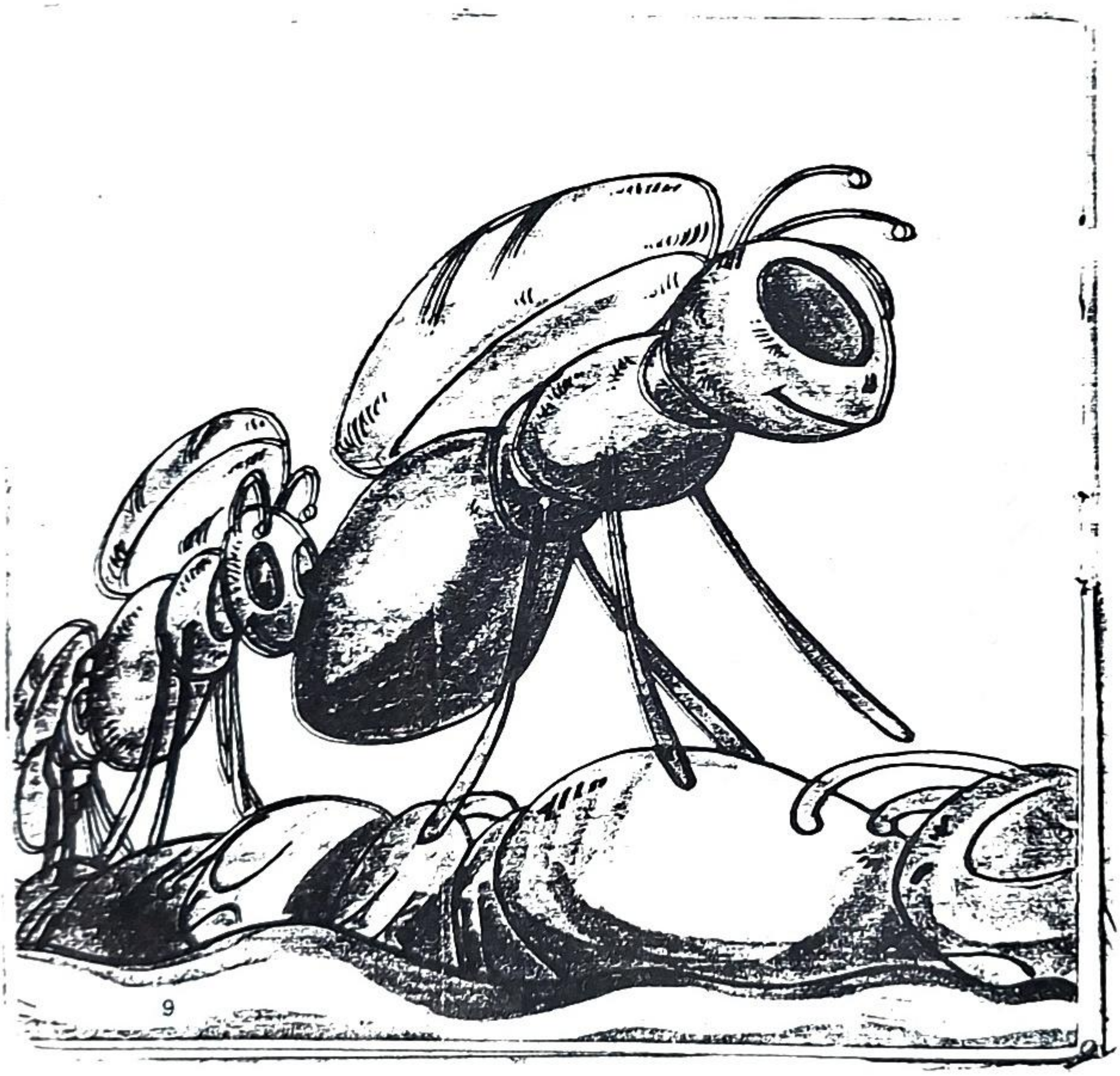
وذلك ما تم فعلا...

- المعروف يا أولادي ان النملة تموت عندما تلدغها نملة اخرى.. او انها من الممكن ان تعيقها. لذلك فان النمل قد صنع جسرا من الضحايا يربط بين ضفة الاناء وقطعة الحلوى. ارايتم؟ هكذا وصل النمل الى مبتغاه.

صاح الطفلان: يا..... ه !!!

قال الاب: والان.. اتدريان ماذا صنع القائد؟

قال صادق: لايمكن ان يصل الى القلعة قبل فوات الاوان اذا لم يفعل كما فعل النمل.



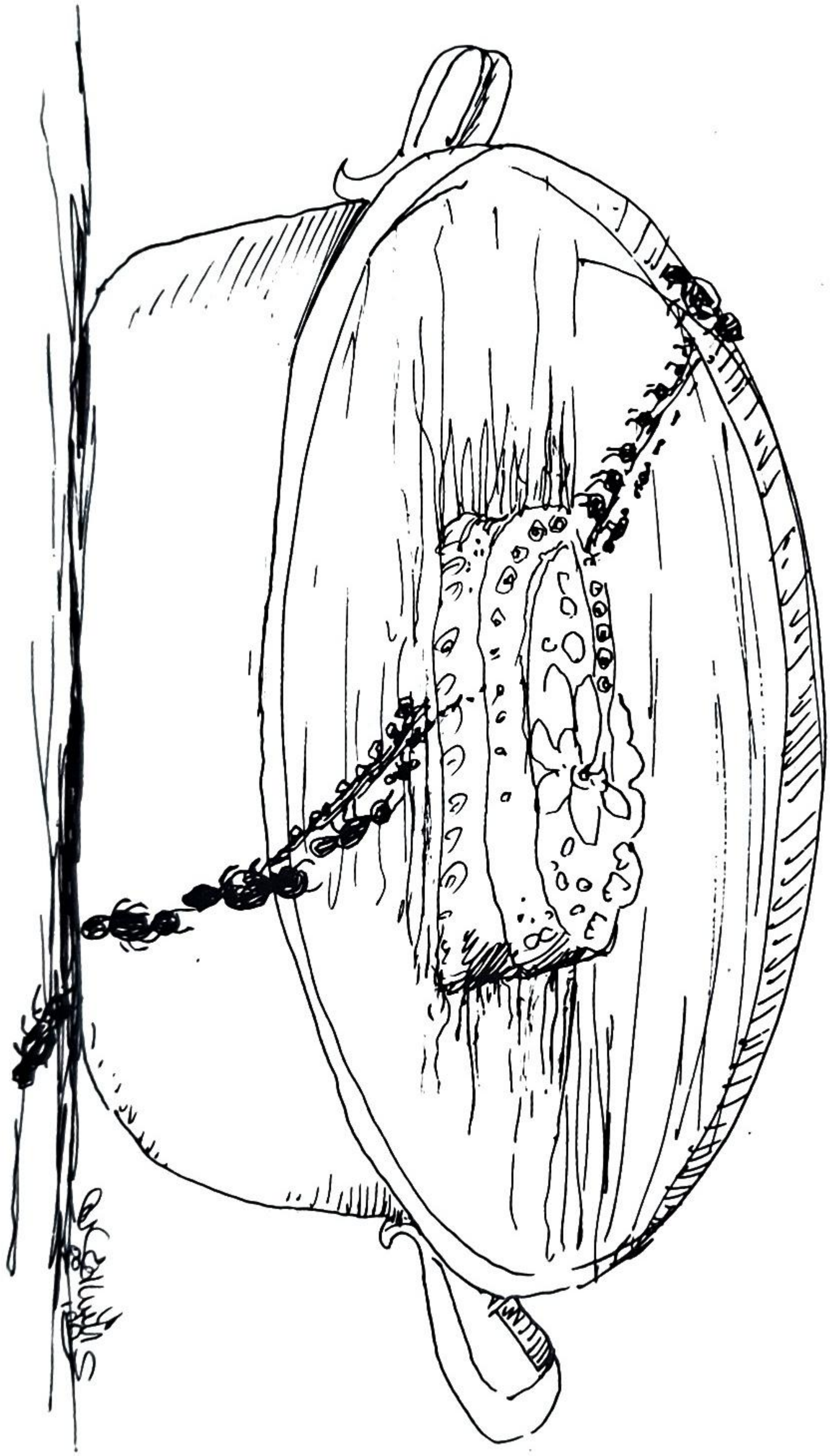
وقالت كريمة: لكي يطرد اعداءه يابابا عليه ان يصنع جسرا من شهداء.

قال صادق: لابد من التضحية من اجل الوصول.

قال الاب: وهذا ما فعله القائد ياحبابي.

قال صادق: هذه قصة صعبة يابي.

وقالت كريمة: ولكنها قصة تضحية بحق ياصادق.



المكان الأجمل

قال الملك لخادمة النسر ذي الجناجين الكبيرين:

— ايها النسر ياذا الجناحين انني ضجر.

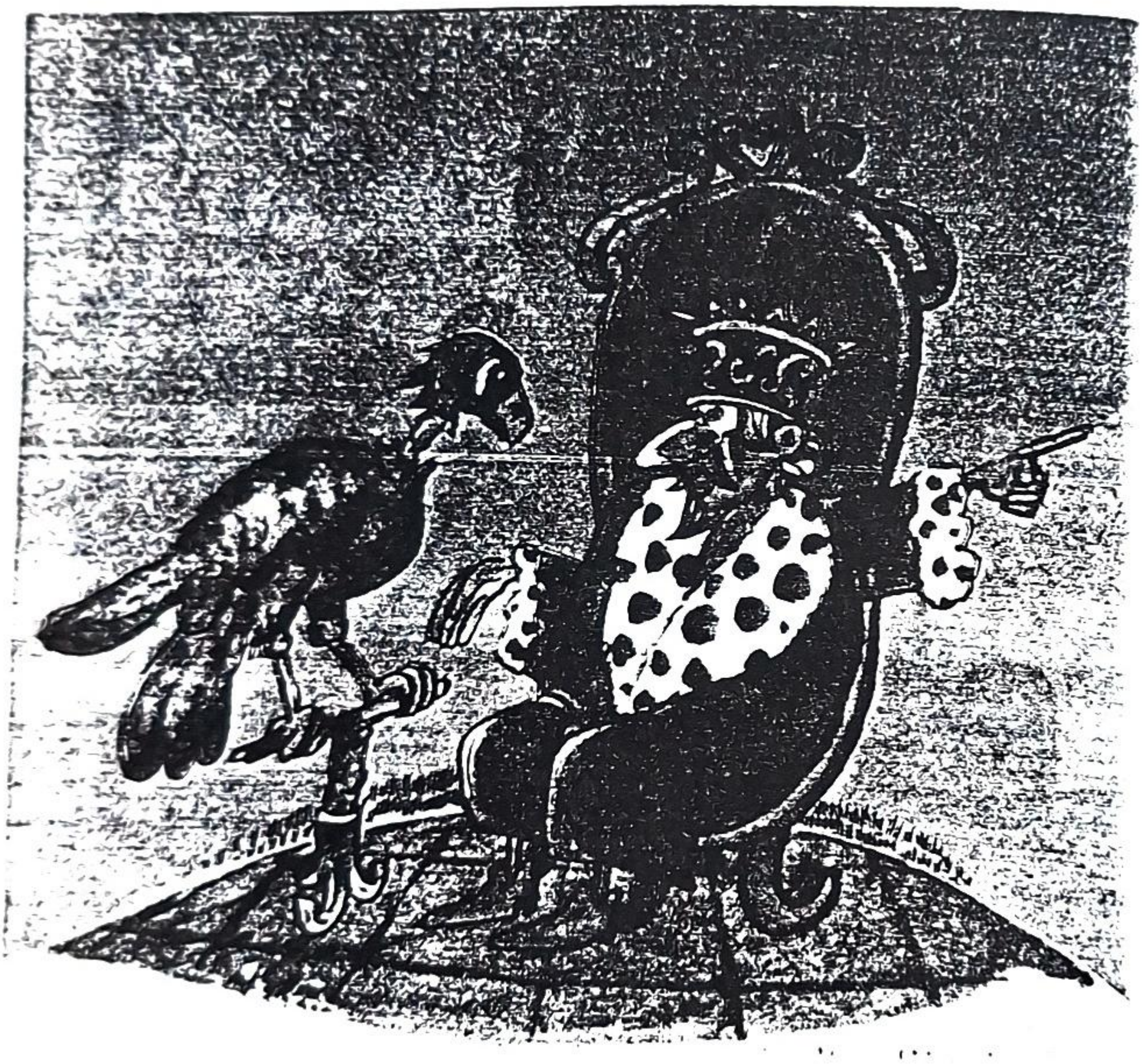
سأله النسر: وماذا تريدني ان افعل يامولاي؟

اجاب الملك: طِرْ وابحث لنا عن اجمل بُقعة في الوجود ثم عُدْ واحملني اليها.

قال النسر: امرك مطاع يامولاي.

ثم ضرب الهواء بجناحيه العملاقين وارتفع في الجو.. مضى يبحث عن اجمل بقعة في الوجود.. مر على الجبال خضرا وجردا.. جبال تكسو سفوحها غابات البلوط والفستق والجوز وجبال تغطيها الثلوج وتلبسها ثيابا بيضا من الوديان حتى القمم مر على السهول والسهوب على الهضاب والصحارى اراض سود. اراض بيض. رمال تتحول الى كثبان ثم لا تلبث ان تتلاشى فتعود رمالا تذروها الرياح. حدائق غناء مزهرة باسقة الشجر طيبة العطر. مزارع اطرافها مترامية عطاؤها وفير. مر على المدن الملونة مثل قوس قزح. مر على مدن الغش ومدن الامانة. مدن العمل ومدن اللعب.. شاهد عوالم مختلفة، وامصارا لا تحصى ولا تعرف بعضها بعضا.. سمع الناس يتكلمون بلغات غريبة، ولهجات غريبة ووجوه لاتشبه الوجوه الاخرى. رأى البيوت درجات، والبلدان درجات. القرى تتباعد وتتقارب. وحياة الغابة تمتد في اعماق المدن.

برغم كل شئ كانت مواطن الجمال كثيرة.. ثم التمعت عيناه بوهج وردي وصاح بصوت كان مزيجا من الرعشة والفرح.



- وجدتـــه.

كان قد شاهد مكانا رخوا، محصورا بيـــن الارض اليابســة والنهر ويمتد ويتسع اتساعا كبيرا تغمره مياه ضحلة ونباتـــات كثيرة، تتوسطه صخرة عالية صخرة جرداء مرتفعة كانها جبـل صغير املط، نبت خطأ وسط هذا المكان الغريب.

هبط النسر فوق الصخرة الجرداء المرتفعـــة وســط الارض الرخوة، ثم صار يحتظنها بقوة كأن به رغبة عنيفة لان يحملها معه او ان يدخلها في اعماقه وربما كان يرغب ان يدخل هـــو فيها. في اعماقها. يذوب. يتلاشى.

ظل النسر هكذا برهة بعدها سكن انفعاله وهدأت انفاسه ثـم صار يدير بصره في المكان يتفقده نبتة نبته. طيرا طيرا. قطعة قطعة.

كان الجناحان العظيمان حتى هذه اللحظة مبســوطين علــى سعتهما يحتظان الصخرة بهدوء ويناmان بسلام. كـــانت عينـــاه الكبيرتان فقط تدوران في محجريهما يتفقدان كل شئ. كل مـــا يحيط بالصخرة العالية.

ثم رفع النسر رأسه ولم جناحيه وهبط الى الاســـفل. الــى الارض الرخوة. ابتدأ يتنقل بخطوات هادئة، وئيدة. كان صامتـا ينظر في المكان، يتمشى، وقف على حافة الماء. شرب حتـــى ارتوى. تنفس من هواء المكان بعمق. بعد ذلك صفق جناحيــــه وطار. دار حول المكان. حول صخرته، ثم قفل راجعا الى قصــو صاحبه.



حين وصل النسر الى قصر الملك بعد سـفرة البحـث عـن المكان الاجمل في الوجود كان اول قوله له:

– لقد وجدت المكان الاجمل يامولاي

صاح الملك: مرحى لك. احملني اليه اذن.

وحمل النسر الملك فوق جناحيه. يرتفع به بين طبقات الغيم تارة. ويهبط به حتى يكاد يلامس الارض تارة اخرى . تثلجهما الريح الباردة مرة، ويصيببهما لفح الريح الحارة مرة ثانية. مرا بالاماكن نفسها التي مرَّ بها النسر في رحلته الاولى وشـاهدا معا اشياء جديدة، وعرفا امورا ما كانا يعرفانها قبل الان.

استمرت الحال هكذا ثلاثة ايام بلياليها واخيرا اشرفا علـى مستنقع كبير نبتت في منتصف صخرة عالية جرداء وهنا فقـط شعر النسر الذي يحمل على ظهره ملكا انسيا، بالراحة.

وقال بفرح عظيم: مولاي لقد وصلنا يامولاي.

ثم هبط فوق ارض المستنقع وترجل الملك عن ظهر النسـر ادار بصره في ارجاء المكان كان مسـتنقعا مليئـا بضفـادع واشنات ومياه ضحلة واسماك صغيرة ونباتات قصب وبـردي ورائحة طين وماء راكد.

كان مستنقعا حقيقيا وهذه الصخرة الصماء المرتفعـة مثـل جبل صغير، ما الذي تعنيه لهذا النسر العملاق. نسره العمـلاق الطيب؟



التفت الى لنسره وسأله:

– هل قلت ان هذا المكان هو البقعة الاجمل في الوجود؟

اكد النسر: نعم يامولاي قلت ذلك.

استغرب الملك: هذا المستنقع الاسن وهذه الصخرة الكالحة؟

كرر النسر: نعم يامولاي.. الصخرة والمستنقع.

زاد استغرب الملك لكن.. كيف!!؟

قال النسر: انه المكان الذي ولدت فيه يامولاي، انه وطني.

عندها صمت الملك وقد ارتسمت عند زاويتي شفتيه ابتسامة رضا.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣٩ لسنة ٢٠٠١

دار الحرية للطباعة ــ شركة عامة

الفهرس

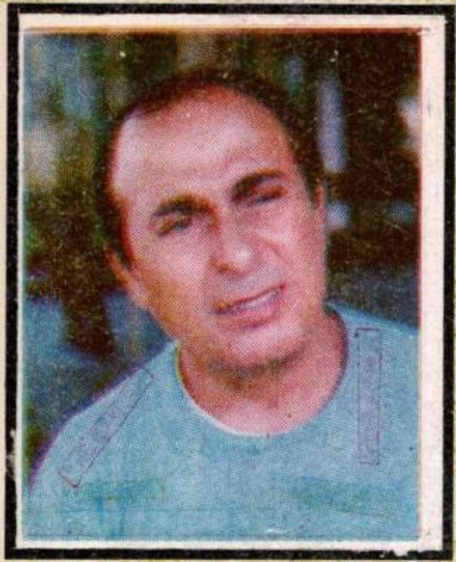
المحتوى	الصفحة
الإهداء	5
طائر بلون الفضة	6
المنار (كان ذلك في العام 1992)	51
سرّ الإبل الطافية	63
أبناء الشمس	71
السرّ	85
المكان الأجمل	97
المحتويات	109

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع.

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

اديب الاطفال

حسن موسى



كاتب متخصص:

في أدب الاطفال والناشئة.
نشرت له دور النشر في العراق والبلاد العربية مايقرب من مائة كتاب للاطفال.

اهم ماصدر له:

كلام كبار - زينب وعلاء الدين - الوصول - نوز - المكان الاجمل - الاميرة نور - السر - زهرة البنفسج - الوجه الضاحك - طفل الزهور - النخلة المسكونة - المياه الحمر - زورق اخر - انا الفيل نحن الفيلة - ماذا تاكل الحشرات - رأسان لثعبان واحد - السمكة الذهبية - المرأة الماعز - وغيرها الكثير.

فازت مسرحياته للاطفال:

النخلة - بنات الحارس - الريح - المجنون - الاميرة الكسول - ابناء الشمس - الزيتون - في الجوائز الاولى للمهرجان القطري العام للمسرح والموسيقى للسنوات ١٩٧٤ - ١٩٧٥ - ١٩٧٦ - ١٩٧٧ - ١٩٨٠. ومسابقات اخرى مختلفة.

عممت مسرحيته:

(الملك نبوخذ نصر الثاني) للناشئة على القطر عام ١٩٩٨.

له موقع خاص

على شبكة الانترنت في المملكة الاردنية الهاشمية.

تصميم الغلاف / فؤاد عطا حبيب

دار الحرية للطباعة - شركة عامة